العقيدة في القرآن

الدكتور
عبد السلام التونجي





WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

العقيدة في القرآن

الدكتور عبد السلام التونجي

العقيدة في القرآن



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE

العقيدة في القرآن
تأليف: الدكتور عبد السلام التونجي



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طريق السواني - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
هاتف: 65 _ 4808461 - بريد مصور: 4800293 - ص.ب: 2682 طرابلس
website: www.islamic-call.com
E-mail: Society@the-wics.org

الطبعة الثانية: 1377 من وفاة الرسول ﷺ - (2009) مسيحي
الرقم المحلي: 572 / 2008 دار الكتب الوطنية - بنغازي
الرقم الدولي: ردمك: 9 - 186 - 28 - 9959 - ISBN: 978

بسم الله الرحمن الرحيم

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلاَّ قال في غده: «لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن. ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

تقـديـم

يتناول موضوع هذا المؤلف العقيدة في القرآن وهي أدق وأقدس قيمة إنسانية عرفها التاريخ، وبحث عنها الإنسان في حياته منذ أدرك وجوده، ليدرك من خلالها معنى هذا الوجود، من أوجده؟ ولماذا وجد؟ هذا التساؤل الذي يثور في نفسه يقوده إلى معرفة العقيدة ليتحسس أبعادها، ومحتواها وأثرها على وجوده، وسلوكه في هذه الحياة، وأثرها في وجود الحضارة وانهيارها تبعاً لماهية هذه العقيدة، فلا عجب إذن، إذا رأينا أن معالم كل مجتمع ترسمه عقيدة المجتمع نفسه، فالعقيدة على هذا الأساس هي المقياس الذي يحدد بها مدى رقي المجتمع أو تخلفه في الميادين الإنسانية، التي تعتبر الطريق إلى التقدم في باقي الميادين الأخرى.. السياسية والاجتماعية والاقتصادية. من هنا كانت العقائد تبعاً لهذا المنظور محور الصراعات بين الأمم منذ وجد الإنسان على وجه الخليقة، لا سيما وأن العقيدة هي التي ترسم أيضاً معالم شخصية الإنسان، وتحدد سلوكه، وتثري عقله وقلبه بالقيم الروحية، لتشيع في نفسه الاطمئنان، وتضفي على حياته السعادة، وتكشف له معاني وجوده، إذ الإنسان المجرد من العقيدة الإسلامية إنسان فاقد لأبعاده في المجتمع الإنساني، وبالتالي فاقد للقيم الروحية، فهو إنسان ضائع عايش على هامش الحياة وهو أقرب إلى البهائم منه إلى الإنسان. من هذا المنطلق اهتم العالم الغربي المسيحي بالعقيدة وأدرك

أبعادها فراح عن طريق بعثات التنصير بغزو الأمم ليغرس فيها العقيدة المسيحية هادفاً من وراء ذلك وباسم التنصير تحطيم العقيدة الإسلامية، وطمس أو تحريف معالمها وتشويه معطياتها، نظراً لأهميتها في تكوين القيم عند الإنسان، وتزويده بالعلم والعمل والقوة. إذ المسلم المزود بعقيدته يصمد أمام كل غزو وخاصة الغزو الصليبي، لهذا كان الإسلام يشكل خطراً كبيراً على العالم، نظراً لما لطبيعة عقيدته من مزايا تساعد على سرعة الاقتناع بها وانتشارها من جهة، ولأنها عقيدة معززة بالقرآن محفوظة به، باقية ومستمرة باستمراره، إلى أن يرث الله الأرض من جهة ثانية، لهذا فإن إدراك دول الغرب لخطورة هذه العقيدة الإسلامية وأصالتها، جعلتها تفتعل المعارك المختلفة، لوقف انتشار الدين الإسلامي بالقضاء على الدول الإسلامية، ولئن وفقت في معاركها الحربية وجعلت الدول الإسلامية ضعيفة مشتتة، بحيث سيطرت على كافة مفاتيح التوجيه في ميادين الحياة من الناحية السياسية والاقتصادية، والإعلامية، بيد أنه لا زالت هذه القوى الصليبية في معاركها الخفية في ميدان الثقافة والتنصير، تحاول بإصرار تحطيم العقيدة الإسلامية والحد من نشرها، باعتبارها الحصن الأخير للعقل والفكر الإسلامي، فالمعركة مع العقيدة الإسلامية هي معركة الوجود الإسلامي أو اللاوجود، فإذا انهارت انهار كل شيء، فينهار المجتمع الإسلامي في تفكيره، وثقافته وتربيته، وآدابه، بل تنهار كل قيمه التي تكوّن معالم شخصيته، وبهذا يسهل على الغازي تحقيق أهدافه بالقضاء على الأمم الإسلامية، من هنا كان الاهتمام بالعقيدة الإسلامية ونشرها هدفاً لكل مسلم طالما أنّها الحصن الوحيد الذي تتحطم أمامه كافة قوى الغزو، إذ كل أمة يتعلق وجودها بمدى سلامة عقيدتها وتمسّكها بها، فالعقيدة الإسلامية إذن هي من مقومات الرقي والتقدم والقوة، وبالتالي فهي الأساس في سعادة المرء في الدنيا والآخرة. لهذه الأسباب جميعها وقع اختياري على بحث موضوع العقيدة في القرآن، وقد تتبعت في دراسته منهج القرآن تتبعاً واستقصاء من خلال آياته التي تدعو إلى الإيمان بكافة عناصره ومقوماته، تبعاً للمعطيات الفطرية عند الإنسان،

إذ أنه بطبيعته، وبحكم العقل والتفكير بما يحيط حوله في هذا الكون من مخلوقات وموجودات، لا بد له وأن يهتدي فطرياً، إلى أن هذه الكائنات لها خالق عظيم خلقها ودبّر أمرها، وبهذا يصل إلى الإيمان بوجود الله. وهذا هو منهج التفكير والتأمل الذي انتهجه القرآن في إثبات وجود الله ووحدانيته، وصفاته، وهو المنهج الذي اعتمده السلف.

هذا المنهج هو منهج الفطرة الإنسانية وهو يساير كل إنسان في كل أمة، وفي كل جيل، باعتبار أن عامل النظر والتأمل والتفكير، إنما هوعامل مشترك بين الناس جميعاً من علماء وجهلاء، وهو عامل بسيط يستمد أصوله من التأمل وإعمال الفكر، وهي غريزة قائمة في طبيعة النفس الإنسانية ونظرتها. هذا كما أنني لم أدخر جهداً في تتبع العقيدة الإسلامية وإثبات مقوماتها وعناصرها، من الاعتماد على منهج المتكلمين الذين سلكوا في سبيل الكشف عن هذه العناصر والإيمان بها طريق البرهان بالأدلة العقلية، وهو المنهج الذي يعتمد على المنطق لا على الفطرة والعاطفة، أي أن قوام هذا المنهج هو العقل، سواء عن طريق إعمال البديهيات، أو عن طريق طرح قضايا تصديقية؛ بمثابة فرضيات يبرهن عن طريقها على النتيجة المتوخاة، هذا المنحى في البرهان يعتمد العقل ليأخذ حريته في البحث.

هذا وقد قدمت الموضوع بمقدمة أعطيت فيها فكرة عامة عن أهمية العقيدة كعامل أساسي في رقيّ الأمم، وتعرضت إلى الغزو الصليبي للعالم الإسلامي في العصر الحاضر، وبينت التفكك والضعف الذي هو أثر من آثار ترك العقيدة الإسلامية، وأنه لا بد من إعادة بناء الشخصية الإسلامية لتحقيق المجتمع الإسلامي الأفضل، إذ الإسلام وحده هو الكفيل لتحقيق الصحوة من المناخ الغربي، وقوته الغازية المدمرة؛ كما بيّنت أنه لا بد من معالجة الخلل المتحكم سواء في عالم الأشخاص، أو عالم الأفكار أو عالم الأشياء: وأنه لا يتم التصحيح إلاّ بالعودة إلى أحكام القرآن الكريم عقيدة، وشريعة، ومنهاجاً، وعبادة، ومعاملة، إذ القيم الإلهية العقائدية، هي وحدها الكفيلة بتصحيح

المسار، وتحقيق السعادة وضمان العزة والقوة، والمنعة للأمة الإسلامية. ثم قسمت موضوع البحث إلى ثلاثة أبواب ضمتها فصولاً.

في الباب الأول في الدين وقد أفردت له أربعة فصول:

الفصل الأول: خصص لمعالجة نشأة الدين وبواعثه بشكل عام، كما تضمن البحث عن مصدر الدين في الفكر الإسلامي.

الفصل الثاني: في مقومات الدين الإسلامي وخصائصه.

الفصل الثالث: في الدين الحقّ، مفهومه ومعالمه وأهدافه، ووضع العرب قبل الإسلام، وظلمات الجاهلية.

الفصل الرابع: في الدعوة إلى رسالة الحق، مفهومها، وأسسها العلمية، أهمية الدعوة الإسلامية وواجب الدعوة إليها.

الباب الثاني في العقيدة وقد تضمن أربعة فصول:

الفصل الأول: في مصدر العقيدة مفهومها العام والخاص، ومدى ارتباط العقيدة بالشريعة.

الفصل الثاني: في عوامل أدوات تكوين العقيدة، وأهمية العقل في هذه العوامل وأثره في الاستدلال.

الفصل الثالث: في أدلة الاعتقاد بوجود الله، دليل الامكان، دليل الحدوث، دليل النظام، خَصَائِصْ الأزلي والحادث، اقتضاء العقيدة لواجب الوجود، الحياة، العلم، الإرادة، القدرة، الاختيار، الوحدة.

الفصل الرابع: في صفات العقيدة الإسلامية الشمولية، انتفاء الوساطة، الذاتية، التوازن، أبعاد العقيدة الإسلامية، البعد النفسي، البعد الاجتماعي، البعد الميتافيزيقي.

الباب الثالث في مضمون العقيدة:

الفصل الأول: في الإيمان تضمن توحيد الربوبية، في نطاق العبادة،

الدعاء، الشكر، الاستسلام، الولاية، وتوحيد الألوهية، الطاعة، الإخلاص في حب الله وعبادته، الرغبة، الرهبة، مضمون الألوهية، التوحيد، العمل بالفرائض، ترك ما يتناقض مع التوحيد بأسماء الله وصفاته، تنزيه الصفات والأسماء عن النقص، ثبوت صفات الله وأسمائه، عدم السؤال عن كنه صفات الله وأسمائه، أنواع صفات الله، معاني أسماء الله سبحانه وتعالى، ثبوت التوحيد بأسماء الله وصفاته.

الفصل الثاني: الإيمان بالملائكة.

الفصل الثالث: الإيمان بكتب الله، التوراة، الإنجيل، القرآن.

هذا وسأقدم بإذن الله في الجزء الثاني الإيمان بالرسل (النبوة والوحي) ورسالة محمد ﷺ على وجه الخصوص، والإيمان باليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره.

هذا ولا يفوتني أن أذكر أنني اخترت في عرض موضوع هذا المؤلف الأسلوب البسيط البعيد عن التعقيد، حيث عرضت الأفكار واضحة متجنباً اعتماد النظريات الفلسفية، بل كان رائدي في التوضيح القرآن الكريم مرشداً ومبيناً، فهو المرجع الأساسي في دراسة العقيدة الإسلامية الذي حدد أركانها، ورسم بها معالم الشخصية الإسلامية وأهداف الأمة الإسلامية التي حمّلها رسالة الدعوة الإسلامية بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وأسأل الله أن يكون هذا الجهد المتواضع فيه ما يرضي الله سبحانه وتعالى وينفع الناس. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

لا عقيدة إلاَّ بالعقل، ولا عقل إلا بالإيمان ولا إيمان إلا بالمعرفة، ولا معرفة إلاَّ بالقرآن. فمن عرف القرآن فقد عرف الله، ومن عرف الله دعا إليه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

صدق الله العظيم

* * *

المقدّمة

إنَّ كل أمة تركت معتقدها وإيمانها بالله، وقيمها العقائدية الشمولية، كان مصيرها الضعف والانحلال، بحيث تغدو في هذه الحالة هدفاً للغزو الفكري، فتفقد بذلك كرامتها، بل وكيانها، فتضمحلّ عندها أسس الحياة، وتنعدم عليها الحريات، ومبادئ العدالة والمساواة، وتتفكك قيم التكافل الاجتماعي. وبهذا تضيع المسؤوليات وتضحي الأمة والحالة هذه مهيأة لغزو عقائدي مغلوط، أو لفكر إلحادي أو صليبي، وبديهي أن يكون هذا كله نتيجة لانهيار القيم، وضعف الوازع الديني والأخلاقي. إذ من المعروف أن المحرك الأساسي للقيم الإنسانية والحضارية بتحقيق إنسانية الإنسان، يكمن في العقيدة والإيمان، فالعقل وحده دون عقيدة قاصر، وغير كاف لتحقيق حضارة إنسانية، كما أن العلم وحده غير كاف أيضاً لتكوين هذه الحضارة، لهذا كان لا مندوحة من أن يكون الإيمان بالله، هو المعيار الضابط لطمأنينة الإنسان، ولتقدم المجتمع ورقيه باعتبار أن الإيمان هو الدافع للعمل، كما أنه هو الكابح لجماح النزوات، والسيطرة، والاستكبار، والاستعلاء، والتحكّم، وبهذا تكون العقيدة هي المعيار والميزان لكافة القيم، إذ العلم وحده دون وازع ديني عقائدي سليم لا يحقق السعادة البشرية للإنسانية، بل قد يكون باعثاً ومحرضاً على دمارها، ففقدان العقيدة إذن يحقق فقدان الحضارة، وفقدان القدرة على الترابط والتناسق، والتربية

الأخلاقية، والقيم الخلاقة والبناءة للبشرية جمعاء، فتنزلق بذلك الأمة نحو الصراعات والفساد الأخلاقي، وتعاني أزمات حادة، تفقد بها السيطرة وفعالية القوة. كل هذا بالنسبة للشعوب المتقدمة.

أما بالنسبة للشعوب المختلفة، وخاصة الشعب العربي المسلم، فهو يعاني اليوم من أزمات حادة، نتيجة لجمود فطره، وقصوره عن اللحاق بركب الحضارة، ولا شك أن هذه المعاناة ناجمة عن تركها للأسس والفعاليات، التي تقتضيها العقيدة الإسلامية.

كما أن اللاعقلانية التي استولت في العالم العلمي على ساحات البحث والتقدم، سواء من ناحية العلوم الطبيعية، أو الفيزيائية، أو الكونية، أو التكنولوجية أو الالكترونية والتي تهدد العالم بالدمار، مردّها إلى فقدان العقيدة الإنسانية، ذات الشمولية الثابتة، والاستقرار الأخلاقي، والروحاني، والوجداني. وبهذا نستطيع القول مبدئياً: إن العقيدة الصحيحة ذات قوة دينامية بناءة، شاملة، وهي الأساس والدافع لإقامة حضارة إنسانية عقلانية، تجنب العالم المآسي والأزمات الخانقة، باعتبارها تقوم على أساس إنساني رائدها سعادة البشرية، ومحورها محبة الإنسان، عملاً بقول محمد ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

هذا ولا سيما أن المجتمع المادي المعاصر، يتسم بطابع التناقضات، فهو يتجه نحو المصالح الأنانية، خاصة وأن الشعوب تتنافر فيه وتعمق باتجاهها، مما يزيد في هذه التناقضات حدة، وهي مشدودة دائماً نحو التكنولوجيا اللاعقلانية، بتطور سريع على كافة المستويات، من غزو الفضاء والنجوم، وصناع الإنسان الآلي La Robotique، وعلم الوراثة La Génétique.

هذه الاندفاعات والهجمات العلمية التي غزت كل شيء، أضحت مفزعة، لا منها بالذات فقط، بل من سرعة تطوراتها وتحولاتها، دون حساب

(1) رواه البخاري ومسلم (الأربعين حديث) النووية الحديث الثالث عشر ص35.

لأي قيم إنسانية، بحيث أضحت سابقة على سير المجتمع، بل مهددة له، وكادت أن تخل بقدرات الإنسان، على إدراكها وتداركها أو استيعابها، أو التكيف معها، أو وضع مكابح الأمان لها.

وهكذا ألف المجتمع الغربي نفسه أنه في سباق مع الزمن، كلما حلّ عقدة وجد نفسه أمام عقدة أخرى طالبة الحل، إنه خلل قائم ومستحكم، بين الفيزيولوجيا البشرية من جهة، وتطور حياتها اليومية[1] في مسارها العلمي والاقتصادي، والسياسي، وفي سلوكها العقائدي والأخلاقي من جهة أخرى.

وهكذا أضحى الإنسان متذبذباً، حول قطب الاستقرار النفسي، يعتريه شعور بالخوف وعدم الطمأنينة، ففي كل الميادين انعدمت ثقته في كل شيء، لقد انتصرت عليه القيم المادية والآلية، وأضحى معزولاً لا يملك التغيير أو المجابهة يفقد استقراره وطمأنينته، فحقد على العالم التكنولوجي، ويئس من وجوده، وراح يعيش في انفصام شخصي، بين القيم الروحية، والدينية، والمجتمع المادي.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد رزت الطبقية، والحزبية، والطائفية، والقبلية، وراحت كل شريحة من هذا المجتمع تسعى إلى تحقيق مصالحها، وهكذا قام التناحر بين المصالح، وانعدمت روح المواطنة والتعاون، واشتد الصراع بين هؤلاء على الحكم بدافع من المصالح الخاصة، وهي تحقيق رؤية ومصلحة تلك الجماعة، وهذا ما يناقض مبادئ العدالة والمساواة، ويحقق منطق القوة.

أما على النطاق الاقتصادي، فقد أضحى المجتمع الغربي القائم على الحضارة المادية مجتمعاً يلهث نحو الإنتاج والمزاحمة في سبيل غزو العالم الثالث بالسلع، بدافع تحقيق الدخل لمشاريع التنمية، وهذا بالطبع يقوده إلى السيطرة على الأسواق العالمية.

(1) عبد العزيز الحبابي ـ الحضارة الإنسانية وحضارة التصنيع ـ مجلة الوحدة عدد ص1 ص11.

وهكذا أضحت الصراعات في المزاحمة والاستغلال هي الهدف، ومن أجلها توضع الخطط للسيطرة على العالم المتخلف.

بهذه النظرة المادية البحتة، تحولت الصناعة والتجارة من هدف تحقيق الحاجات إلى غرض الاستعمار الاقتصادي ولو بالعنف، وبهذا برزت القوة العسكرية التي خرجت عن دورها الأساسي، من الدفاع عن الأوطان، إلى فرض السيطرة السياسية والاقتصادية، والثقافية، بالقوة، لتمسخ شخصيات الدول الضعيفة إزاء هذه القوة... وهكذا حصل الانقلاب بمفاهيم القيم، وتفجرت الأزمات في العالم، بحيث أضحى الإنسان في هذا العصر هو الخصم المتصارع يعيش في تجمع بعيد عن روح المحبة والإيمان بالله تبعاً لما تقتضيه العقيدة الدينية.

ولا شك أن هذا قد انعكس على العالم الإسلامي، إن لم يكن مقصوداً بالذات، ليجعله متخلفاً مشتتاً، بعد أن سادت حضارته قروناً عديدة.

هذه هي صورة العالم الإسلامي وهي الماثلة أمام الجميع، مما يدعو الأمر إلى إعادة بناء وتشييد صرح الأمة الإسلامية من جديد، ولا يتم هذا بالطبع إلاَّ بالابتداء في بناء الإنسان المسلم ذاته، من الداخل.

وهذا بالطبع يتطلب معرفة أسس المعطيات الحضارية الإسلامية، بيد أنه لمعرفة متطلبات البناء، يقتضي منا معرفة الواقع الإسلامي، الذي به نستطيع تشخيص الداء ووصف الدواء، فلا بد إذن من معرفة الأسباب والمسببات، بمعنى لا بد من دراسة الإنسان المسلم في فكره وسلوكه، ودراسة الصعوبات التي يمكن أن تواجهنا، والتي تقتضي منّا معرفة طاقات الانطلاق نحو البناء الشامل، من خلال معرفة مشاكلنا، والمفاهيم الإنسانية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية، ولا شك أن فهم هذه الأمور يحقق لنا معرفة الأنا (بالذات)، أي معرفة الشخصية الإسلامية، ومعرفة تكوينها، وبالطبع هذه المعرفة، تسبق بناء المؤسسات، وبمعنى أشمل، يقتضي البحث عن بناء الشخصية الإسلامية علماً

وعملاً، من خلال العقيدة الإسلامية، والقيم الشمولية لهذه العقيدة. وليس هذا بالأمر اليسير، لأن معرفة الواقع تتبعاً واستقصاءً يضعنا أمام صعوبات، وحواجز لا بد من تخطيها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة الطريق للتخلص من الركود العام والسُّبات الطويل الذي يهدد عالمنا الإسلامي، طالما أن الغرب جاد نحو محو معالم الشخصية الإسلامية، والأدلة على ذلك ماثلة أمامنا بما يلي:

1 ـ الغزو الصليبي الطائفي المتمثل في حملات التنصير والغزو الثقافي.

2 ـ هجرة العقول العلمية الفعالة، والأيدي العاملة من الدول الإسلامية، نتيجة لضغوط بعض الأنظمة السياسية أو الأمنية، أو الأزمة الاقتصادية.

3 ـ انتشار تيار الإلحاد، المنذر بانهيار القيم عامة.

4 ـ ضعف الوازع الديني والأخلاقي، عند بعض الناس.

كل هذه مهدت للهجمة الاستعمارية الشرسة على معظم الدول النامية والإسلامية خاصة..

وهكذا أضحت المجتمعات الإسلامية في معاناة دائمة، وتمزّق نفسي مما وصلت إليه، نتيجة لما يحيط بحياتها من صعوبات وحواجز، جعلتها عاجزة في حالتها الحاضرة عن السير باتجاه السلوك الصحيح، كما وجعلتها يائسة من المعالجة، سواء من الناحية الأخلاقية، أو الفكرية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، نتيجة لما ذكرناه، بحيث أضحت في تشتت دائم وضياع في معرفة الحل الصحيح إزاءها.

وهكذا استسلمت هذه المجتمعات، وأسلمت نفسها فريسة للعقائد الفاسدة، والمذاهب الهدامة، والقوى الاستعمارية، ولا شك أن هذا الخطر ينذرها للدفاع عن وجودها، ويدعو رجال الفكر والمعرفة إلى المبادرة لحمل مسؤولياتهم، لإيجاد الحلول الناجعة للانقاذ، وهذا يعني معرفة مواطن الداء لوصف الدواء، وهذا لا يتم إلاَّ بمعرفة ما يلي:

أ ـ الأمراض والأخطار المحيقة بالعالم الإسلامي، أي معرفة الأسباب البعيدة والقريبة.

ب ـ الطاقات المختلفة والمتكاملة فيه.

أ ـ عن معرفة الداء:

هذه المعرفة تقتضي منا أن نقف على أمراض العالم الإسلامي ومجتمعاته المختلفة، وستقودنا هذه المعرفة إلى كشف الخلل العام، المتمثل فيما يلي:

1 ـ خلل في عالم الأشخاص من حيث السلوك والمعاملات، وهو خلل منذر بالانهيار الأخلاقي والاجتماعي، وها هي جرائم الحدود في الجنايات، وجرائم القصاص في الجنح منتشرة في مجتمعاتنا المختلفة.

2 ـ خلل في عالم الأفكار: هذا الخلل يكاد أن يؤدي بمعالم الشخصية الإسلامية، إلى كوارث اجتماعية خطيرة، نتيجة لهذا الخلل في الفكر والعقائد، باعتبار أن العقيدة هي الأساس في بناء القيم الحضارية.

3 ـ خلل في عالم الأشياء على ما ذكرناه سابقاً، وهو يؤدي إلى قصور في التنمية وانهيار في القيم الاقتصادية، نتيجة لعلاقة هذه العوامل بعضها مع بعض.

ب ـ عن معرفة الطاقات المختلفة:

في هذه المعرفة نتوصل إلى دراسة توضيحية لشروط بناء المسلم الملتزم، وتحديد التزاماته، ودوره في مختلف الميادين والعلوم، وبما تتطلبه هذه المعارف من دراسة ورسم منهجية علمية سليمة في ضوء ما تتطلبه العقيدة الإسلامية من نوايا حسنة وعمل دائب، ولا شك أن هذا سيقودنا إلى استثمار طاقات العالم الإسلامي المادية، والمعنوية، والتي توصلنا إلى تحقيق حضارة إسلامية، من خلال صراع الحضارات لتحقيق المستقبل السعيد للبشرية جمعاء.

فالمشكلة إذن تكمن في متطلبات البناء الإسلامي، متى؟ وكيف؟ وبماذا يتم هذا البناء؟

بقناعتنا أن اللبنة الأولى في هذا البناء هي:

خلق الإنسان المسلم الملتزم الواعي لدينه ودنياه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

فالعقيدة الواجبة الاتباع والتطبيق إذن هي التي حددها الدين الإسلامي واحتواها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3].

ففي العقيدة الإسلامية يكمن بناء المجتمع الأفضل، القائم على الحرية، والعدالة، والمساواة، وحب الخير، فهي إذن الوسيلة والمنهاج، لا سيما وأن الدين الإسلامي ليس بدين تجريدي، إنما هو دين المجتمع الفاضل، وجد لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، إذ استهدف بأحكامه حياة الإنسان والمجتمع معاً. ذلك لأن الإنسان الكائن الاجتماعي، هو مصدر الفكر والعمل، كما أنه مصدر التغيير، الذي ينعكس بالنتيجة على الأسرة، والمجتمع، والأمة...

من هنا جاء الاهتمام ببناء الإنسان أولاً. لأن الإنسان السعيد هو الإنسان المقيم في نعيم الإيمان، أما الإنسان المغلوط العقيدة، فهو مغلوط في فكره، وسلوكه، واستقراره، وهو في الغالب ملفوظ من الحضارة، فمبررات بقاء الإنسان الأصلح، تتمثل في التوجيه نحو تحريك الإنسان، وطاقاته تنعكس على الطاقات الاجتماعية التي أساسها الإنسان، وذلك بالوسائل العلمية، وبالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 85.
(2) سورة آل عمران، الآية: 83.
(3) سورة آل عمران، الآية: 19.
(4) سورة النحل، الآية: 125.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

فالتوجيه والموعظة بالحكمة لا يتم إلا بالعلم، والعمل، وباليد، والقلب، والعقل، وهذه مقومات للسلوك الذي يسعى إليه المرء، فمن فقدها فقد السعادة التي يرمي إليها، وبالتالي يضحي من الحضارة في ضياع بين قوتين: سلبية تدفعه إلى الوراء لاستغلاله وقهره، وتخديره، للوقوف مكانه متفرجاً، وقوة إيجابية تدفعه إلى الأمام لتحقيق السعادة بالخير والعمل، وهذه تبقى أمنية، ولا تأخذ فعاليتها الإيجابية إلا بالتحرك نحو معرفة الإيمان والعلم، لمعرفة الواجب والقيام به، ودون ذلك لا يمكن تحقيق الحياة الإنسانية السعيدة، خاصة أمام زحف المجتمع المادي العصري المسيطر، إنسان (الروبوط) رمز المادية!

وإذا كانت معظم المذاهب لا تستطيع المحافظة على التوازن بين الإنسانية والمادية، فالإسلام وحده هو الكفيل بذلك ليعيد للمجتمع الإنساني حياته من جديد، وأن المستقبل القريب، لا بد وأن يشهد العودة إلى القيم الإنسانية، التي يدعو إليها الإسلام، فلا بد للناس من أن يصحوا من هذا المناخ الغربي، الذين أضحوا مشدودين به نحوه، باتجاه مسار إلحادي، ومتحررين من المبادئ الدينية، والروابط الاجتماعية، والقيم الإنسانية، دون أن يشعروا بأنهم أضحوا عبيد الإنتاج والتقنية، فضلاً عن أنها حياة تنذر بالفوضى والانهيار، فالمرء بهذا أصبح يواجه أزمة الحيرة والتخلف، وها هي المجتمعات الإسلامية المتخلفة مستمرة بفتورها وانحلالها، لأنها فقدت شروط فعاليتها في نشاطها، الذي أساسه الانبعاث إلى أسمى المبادئ والغايات.

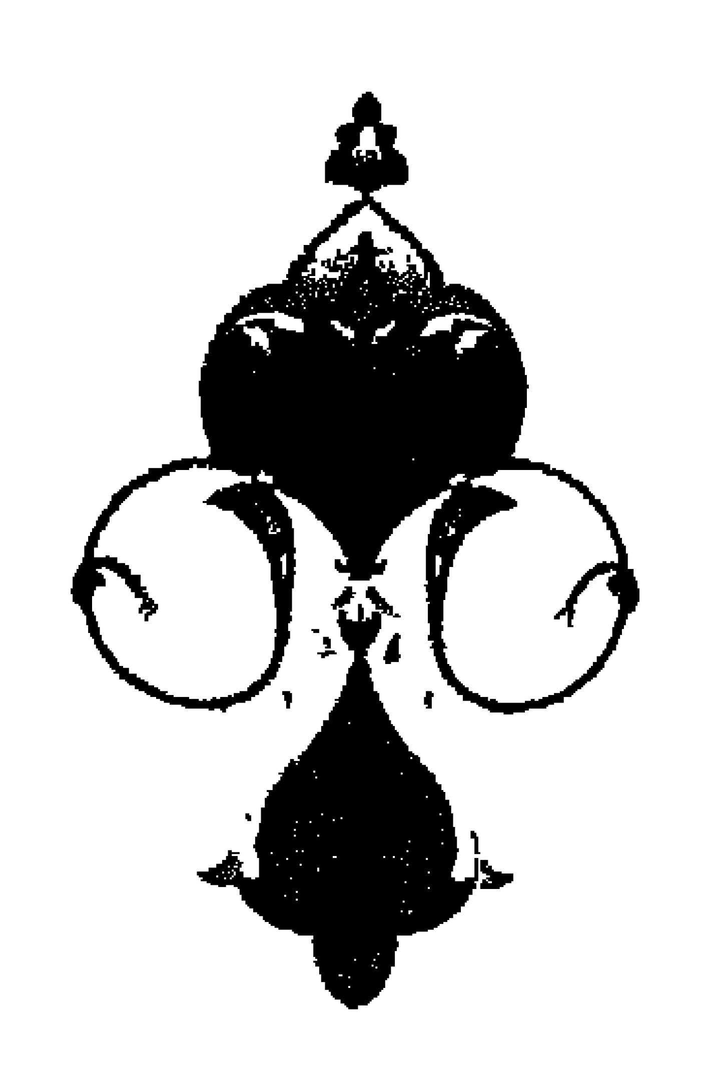
ولا شك أن الصحوة التي ندعو إليها، لا تتم إلا بالعودة إلى القرآن والسنة النبوية، عقيدة وشريعة، ومنهاجاً، عبادة، ومعاملة، إذ أن تصحيح المسار لجميع الطاقات يبدأ من هذه القيم الإلهية الرائدة للخير والسعادة، بالعلم، والمعرفة عن عقيدة وإيمان.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 269.

لهذا فقد اعتمدت في نشر معطيات الإصلاح لبناء الإنسان، والمجتمع الأمثل، والدعوة إليه، فكر القرآن الكريم البعيد عن الخلافات المذهبية، والسنة النبوية، هدفاً وموضوعاً، بأسلوب بسيط، تفهمه العامة والخاصة، معتمداً الأسلوب العلمي البناء والرأي الحر المتفق مع المبادئ الإسلامية، وذلك عن طريق سلسلة دورية تصدر بإذن الله تباعاً، تتناول روح الفكر الإسلامي، لعلها تكون لبنة في بناء المجتمع الإسلامي الصحيح، الذي ندعو إليه، وشعاعاً في طريق الهدى الإسلامي، وقد اخترت بحث العقيدة في القرآن، ليكون أول مواضيع هذه السلسلة، والله أسأل أن يوفقني إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين بالقول، والعمل، وهو نعم المولى ونعم النصير. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باريس 1/ 1/ 1985
عبد السلام التونجي



الباب الأول

الـــديـــن

الفصل الأول

نشأة الدّين وبواعثه

الدين ظاهرة إنسانية واجتماعية ضرورية، يتحسس لها كل إنسان عاقل، إذ يدرك بوجوده أن له صلة بموجود أعلى يلجأ إليه لتحقيق رغباته، وحمايته وتحقيق حاجاته الروحية، ويتفاعل به المرء، ويطغى هذا التفاعل على جميع انفعالاته الأخرى[1].

على أن هذه الصلة بموجود أعلى يقدسه قد تكون قائمة على العاطفة أو تكون قائمة على التقليد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

هذا وقد تكون الصلة بموجود أعلى قائمة على الفكر والعقل، تبعاً لوجود فكرة السببية لدى كل إنسان، حيث يتساءل المرء بفطرته وهو يقلب بصره فيما

---

(1) الدين يأتي لعدة معان، منها الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ومنه قولهم (كما يدين الفتى يدان)، ومنها الخضوع والانقياد، يقال: دان له، بمعنى ذل وخضع، ويقال: دان الله بكذا أو على كذا، بمعنى اتخذه ديناً يعبده. والمراد بالدين (الإسلامي) ـ هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته، أي الدين الحق، والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب. فالمراد به الثابت الواقع، يقابله الباطل الذي لا حقيقة له) ـ ابن تيمية ـ شرح العقيدة الواسطية ـ محمد خليل هراس ص10.

(2) سورة البقرة، الآية: 170.

حوله، ويفكر بعقله ليدرك الخالق لهذا الكون، والمنظم لسيره وتوازنه، فيرتد إليه بصره وهو حسير، ويكل عقله ويقف مسلماً بأن هذه الوحدة الكونية المتماسكة، لا بد لها من خالق تبعاً لمبدأ «العطالة» كل شيء لا يتحرك إلا بمحرك. فالعقل يقتضي حتماً بوجود خالق لا يعجزه شيء، لا تدركه الأبصار وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

فالمرء إذن أمام هذا الكون والمخلوقات، لا يستطيع أن يعيش دون أن يحس بهذه الأشياء من حوله غير عابئ بها، أو غير مؤمن بخالقها، إلا إذا كان ملحداً أو كافراً، وإلا عاش في فراغ روحي، وفراغ عقلي، وفراغ اجتماعي، وإذا كان يمكن أن يقال إنه يمكن اللجوء إلى بعض النماذج الدينية، أو النماذج الاجتماعية، أو العقلية، فإن الواقع أثبت أن من هذه النماذج ما هي عاجزة عن فعل أي شيء، أو عن إقامة الحياة السعيدة، بل أدت إلى تناقضات، وفوضى في السلوكية، وانعدام في الروابط الإنسانية، وانهيار في المفاهيم الأخلاقية، وتفكك في العرى الاجتماعية، وخلل في المعاملات الاقتصادية، فضلاً عما خلفت من انهيارات نفسية، أدت إلى بروز ظاهرة الانتحار، وظاهرة الإجرام.

وإذا كان الإنسان بدافع الفطرة والغريزة، يشعر بقوة خارقة، معتقد بوجودها، ويرد كافة الأحداث والظواهر الطبيعية عليها، فإن بعض العلماء رأى أن هذا النوع من الاعتقاد مرده إلى إحساس لا شعوري، طريقه العقل الباطن أو الإلهام، ومهما يكن فهو شعور غير اختياري لا يستطيع المرء رده، أو التخلص منه، ومن يرى هذا الرأي يفصل بين الدين والدولة من خلال هذه النظرة إلى الاعتقاد.

وفريق آخر من العلماء يرى أن الاعتقاد والدين أمر قائم على الاختيار

(1) سورة العنكبوت، الآية: 61.

والإرادة، ولا يمكن تجريد الاعتقاد منها، ولعل هذه النظرة تتفق مع أنصار علم الكلام، الذين يرون أن الاعتقاد قائم على الاختيار، لأن التكليف فيه إعمال الإرادة، والإرادة تكلف في حدود الطاقة الإنسانية[1]، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

من خلال هذا نستطيع القول: إن الدعوة إلى الدين، إنما هو عمل يخاطب الإرادة والعقل فينصت إليها الإنسان، ومن خلال قناعته يرغب فيها أو يبتعد عنها. فالدين تبعاً لذلك يقوم على العقل والإلهام معاً. قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[3].

وإذا كان الدين طريقه العقل والإلهام، فالسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي الدوافع للعقيدة أو الاعتناق لدين ما؟ وهل المرء يشعر بحاجة إلى دين؟ وهل هذه الحاجة تلقائية، مردها البحث عن الاطمئنان النفسي؟ أم أن الدين مرده الشعور بالخوف من عالم مجهول قوي يسيطر على الطبيعة والإنسان، فيخاف الإنسان غضبه فيبحث عنه، ليتقرب إليه ويعبده؟.

أم أن الدين مرده إلى التقليد تبعاً للعادة المألوفة، أو العرف القائم، قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[4].

ومهما تكن صور هذه البواعث، فإن للدين مظاهر مختلفة، من خلالها نستطيع أن نلاحظ، أن تعدد الاعتقادات واختلافها في مفهوم الدين لا تخرج عن اعتناق أصحاب كل عقيدة ديناً ما، ومن استقصاء هذه الظواهر الدينية، نجد أن هناك عبادات مختلفة، فمن الناس من يعبد قوى الطبيعة نتيجة لحاجته إليها وخوفه من أن تحجب عنه هذه الحاجة، فيرى أن استرضاءها يكون بالتقرب إليها، ومن هنا ظهرت عبادة الشمس، وعبادة النار، وعبادة الحيوان، أو

---

(1) يراجع محمود حب الله ــ الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ط1948.

(2) سورة البقرة، الآية: 286.

(3) سورة الشمس، الآيتان: 8 و9.

(4) سورة الزخرف، الآية: 23.

النبات. ومن الناس من يرى أن النفس الإنسانية لا تفنى، وأن الروح ستعود. أصحاب هذه العبادة يؤمنون بتناسخ الأرواح، نتيجة للأحلام التي يشاهدونها، ومع هذا فإن هذه العقيدة لا تخرج عن كونها أحد مظاهر التعبد الوثني.

وهناك من جمع في العبادة بين عبادة الروح وعبادة الطبيعة، هذه العبادات تفضي بالألوهية لهذه الأشياء، ومن هنا كانت فكرة الصنم، وقد يختلف رمزه بين مكان وآخر. فقد يكون طلسماً سحرياً، أو يكون صنماً.

ثم تطور مفهوم الدين فاتجه نحو البحث عن كائن أعلى، وقد تعددت الكائنات العلوية، فتعددت الآلهة كإله الحب، وإله المطر، وإله الخمر، وإله الطب، وإله المعرفة، ثم تطورت عبادة هذه الآلهة إلى فكرة التوحيد والتثليث، الذي أخذ شكله الأخير في الديانة المسيحية، ولا شك أن للفكر الأوروبي دوره وأثره الكبير في ذلك بما ورثوه عن الأمم الغابرة، كاليونان، والرومان، وقد انعكس هذا الفكر القديم على الفكر الأوروبي الذي تخلف عنه الاضطراب في مفهوم الدين وبواعثه وتطوره، وبهذا يمكننا القول:

إن المفهوم الديني عند الغربيين جاء منحدراً عن أفكار مختلفة، فالله في نظر اليونانيين، وخاصة عند أرسطو خال من الإرادة، لأنها طلب، وهو منزه عن الطلب عند أرسطو، وبالتالي لا يعلم شيئاً عن الكليات، ولا عن الجزئيات، كما أنه لا يعقل شيئاً عن ذاته، ومن هنا كان مفهوم الله عند أرسطو مشوهاً، فضلاً عن أن مفهوم الإلهية عند الأمة اليونانية، تعني أسراً تتناسل، فالإله (جوبيتير مثلاً وهو سيد الآلهة متزوج من هيرة) فيرسل إليها الغمام ليخدعها ويحجب عنها انحرافه مع نساء أخر.

مثل هذه المفاهيم لا شك أثرت على الفكر الأوروبي وشوهته في فهمه للدين، وقد انعكس ذلك على الأناجيل واختلافها، من حيث المصدر، والمضمون، والصياغة، وهذا ما أشار إليه أحد العلماء الفرنسيين وهو رئيس قسم الأديان المقارنة في جامعة باريس إذ قال:

«إن أغلب الفقرات التي يظهر فيها أنها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري الأناجيل لا عن عيسى، أما تلك التي يرجح أنها مبنية على حديث صحيح فلا تعدو الأربع أو الخمس فقرات، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساساً في ترجمتها للنص الأصلي»، ومثل هذا النقد أيضاً وجهه العالم (واستس) إذ يقول:

«إن هذا العهد الجديد، ما صنعه المسيح ولا الحواريون، بل صنعه رجل مجهول ونسب إلى الحواريين ورفاقهم».

هذا الاضطراب والشك في نسب الأناجيل، قائم عند الكثيرين من العلماء والمتمرسين في الديانات، فقد قال (أرثر قندلاي) في كتابه الكون المنشور ما يلي:

«إن الأناجيل لا تعتبر سجلات تاريخية، لأن أولها كتب حوالي عام 70 ميلادية، وآخرها كتب حوالي عام 110 ميلادية، وليس للأخيرة قيمة تستحق الذكر».

ويعزز هذه الآراء أيضاً ما ورد في دائرة المعارف البريطانية في معرض الأناجيل في المجلد الحادي عشر ما يلي:

«إن كل قول مندرج في الكتب المقدسة ليس إلهامياً»، كما ورد في المجلد التاسع عشر منها ما يلي:

«إن الذين يقولون إن كل مندرج في الأناجيل الهامي لا يقدرون على إثبات صحة دعواهم».

وقد أيد هذا أيضاً ما ورد في دائرة المعارف الفرنسية في المجلد السابع عشر، إذ جاء فيه:

«إن الناس قد تكلموا في كون الكتب المقدسة إلهامية وقالوا: إنه يوجد في أفعال مؤلفي هذه الكتب وأقوالهم وأغلاط واختلافات... مثلاً إذا قوبلت الفقرة 19، 20 من الإصحاح العاشر من إنجيل «متى» بالفقرة 11 من الإصحاح

الثالث عشر من إنجيل «مرقص» يظهر لك التناقض واضحاً، وقالوا: إن الحواريين ما كان يرى بعضهم بعضاً صاحب وحي كمايظهر من مباحثاتهم في محفل أورشليم»[1].

وهكذا يتضح لنا من أقوال علماء الدين المسيحي، أن الكتب المذكورة ضعيفة السند، مضطربة الأفكار، فمن باب أولى أن ينعكس هذا الاضطراب والتشويه على الفكر الديني عند الأوروبيين، سواء من حيث نشوء الدين أو بواعثه أو تطوره، وهذا بلا شك واضح من فكرة تعدد الآلهة، أو التوحيد والوحدة، إذ لم تستطع المحاولات المبذولة في تفسير فكرة الأقانيم التثليث، إلى الإقناع بما يفيد الوحدة، وهي بالطبع تفاسير لا يقبلها المنطق.

وعلى هذا نستطيع القول: إن الفكر الغربي عجز عن إعطاء الدليل المنطقي، والتصور الصحيح، والسند الثابت، لهذا فإن الاضطراب لا يزال قائماً لمعرفة المفهوم الحقيقي للدين عند هؤلاء، لا سيما وأن الذي زاد في هذا الاضطراب عدم وضوح الفكر الديني عند رجال الكنيسة، واتهام كل من يحاول تفسير الظواهر الكونية تفسيراً علمياً بعيداً عن الكنيسة بالكفر، مما أدى هذا فعلاً إلى اتهام الكثير من رجال العلم بالكفر، وأحيلوا إلى محاكم التفتيش ليلاقوا حتفهم، تحت وطأة التعذيب الوحشي، وهذا ما أدى إلى اتجاه الفكر الأوروبي نحو فصل الدين عن العقل، حيث انتشرت دعوة فصل الدين عن الدولة.

❖ مصدر الدين في الفكر الإسلامي:

إن مفهوم الدين ونشأته وتطوره في الفكر الإسلامي كان واضحاً ومرد ذلك، يرجع إلى وجود مصدر ثابت، وهو القرآن كلام الله العليم الحكيم، حيث أعطى صورة واضحة وثابتة عن مفهوم الدين ونشأته وتطوره. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ

(1) شارل جنبير المسيحية ونشأتها نقلاً عن رؤوف شلبي ـ الأديان القديمة ط2، 1983.

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

يتضح لنا من هذا الحوار أن الفطرة السليمة عند الإنسان تقود إلى التعرف إلى الله، وبمعرفة الله يعرف الدين، فالفطرة هي الرائد عند الإنسان إلى معرفة حقيقة الله، حيث كان جواب إشهاد ذرية آدم على أنفسهم، أن آمنوا بربهم بفطرتهم وشهدوا على ذلك، فالفطرة على سويتها تقود إلى الإيمان بالله الحق. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (23) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾[4].

فالفطرة إذن هي المعيار الذي يحس بها الإنسان بالله، ويؤمن بوجوده، ولا يسوغ له إخراج هذه الفطرة عن سويتها. والدليل على أن الإنسان بالفطرة يحس بوجود الله وقوته، إنه دائماً عند الشدائد مهما يكن قوياً، يلجأ إلى طلب العون من الله، لأنه يشعر بالعجز والضعف تجاهه.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5].

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 172 و173.
(2) سورة الروم، الآية: 30.
(3) سورة يس، الآيات: 22 ـ 25.
(4) سورة الزخرف، الآيتان: 26 و27.
(5) سورة يونس، الآية: 22.

فالإنسان إذن بطبيعته هلوع. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[2].

فالدين الذي يحس به الإنسان ذي الفطرة السوية يشعر أنه قانون الله العام، عليه أن يخضع له، فالله الذي خلق السموات والأرض هو الذي أنزل الدين وحياً على أنبيائه جميعاً، ومضمونه واحد، يدعو إلى وحدة الله في عبادته، فمصدر الدين هو الله، ووسيلته في إنزاله على عباده هو الوحي إلى الأنبياء، وموضوعه التوحيد بالله وربوبيته واسمه واحد وهو الإسلام.

هذا الدين الواحد الذي نزل على الأنبياء بالوحي يحدثنا عنه القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[3].

فالدعوة إلى الإسلام إذن نزلت بالوحي على الأنبياء الذين هم بشر، ولكن الله منَّ عليهم بالنبوة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[4].

أما موضوع الدين فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[5].

فموضوع الدين الذي أنزل على جميع الأنبياء إنما هو واحد وهو عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

---

(1) سورة المعارج، الآيتان: 19 و20.
(2) سورة الزمر، الآية: 8.
(3) سورة النساء، الآية: 163.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 11.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 25.

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾[2].

هذه العبادة هي المطلوبة باعتبارها تطهر النفس وتسمو بالروح إلى مفاهيم سامية، تتهذب بها، وتنصقل الطبائع، ويعلم المرء أنه لن يترك سدى، فيتصرف في معاملاته وفقاً لأحكام الدين، باعتباره عليه رقيب عتيد يسأله عما يفعل ويحصي عليه أعماله. هذه العبادة هي التي دعا إليه كافة الرسل والأنبياء بوحي من الله. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[3].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[4].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[5].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[6].

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾[7].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[8].

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[9].

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[10].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 54.
(2) سورة الرعد، الآية: 36.
(3) سورة الأعراف، الآية: 65.
(4) سورة الأعراف، الآية: 73.
(5) سورة الأعراف، الآية: 85.
(6) سورة المؤمنون، الآية: 23.
(7) سورة العنكبوت، الآية: 16.
(8) سورة النحل، الآية: 36.
(9) سورة الزخرف، الآية: 45.
(10) سورة المائدة، الآية: 72.

وأخيراً جاء رسول الله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ليختم الرسالة الإلهية بالدين. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾(2).

هذا الدين الذي تدعو إليه الأنبياء والرسل كما أنه واحد في مصدره وهدفه، فهو واحد في التسمية أيضاً، وهو الذي سماه الله بالإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(3).

بهذا الاسم دعا كافة الأنبياء والرسل من إبراهيم إلى يعقوب، إلى يوسف، إلى سليمان، إلى موسى، إلى عيسى، إلى محمد، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد أشار القرآن إلى ذلك فعلى لسان نوح، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(4).

وكذا إبراهيم قد دعا إلى هذا الدين، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(5).

كما أن هذا الدين الإسلام هو دين بني يعقوب: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(6).

كما أن الإسلام هو دين يوسف إذ قال: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(7).

والإسلام كذلك هو دين سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(8).

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 144.
(2) سورة محمد، الآية: 2.
(3) سورة آل عمران، الآية: 19.
(4) سورة النمل، الآية: 91.
(5) سورة البقرة، الآية: 131.
(6) سورة البقرة، الآية: 133.
(7) سورة يوسف، الآية: 101.
(8) سورة النمل، الآية: 42.

والإسلام دين موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[1].

وهو دين عيسى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2].

هذا الدين هو الإسلام، هو الذي أخذ الله به الميثاق على أنبيائه جميعاً بأن يرفعوا راية الإسلام فيؤمنون بما أتاهم من كتاب فيدعون إليه ويعزونه وينصرونه، ويأخذون الميثاق على أمتهم أيضاً، ليؤمنوا به، فالإسلام إذن هو دين الناس جميعاً. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[3].

هذا الدين الإسلامي هو الدين الواجب الاتباع، فمن لم يتبعه فهو كافر، سواء كان يهودياً أو مسيحياً، وقد أخذ الله الميثاق على هذا الدين كما ذكرنا إذ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4].

وهكذا تبين لنا بأن الدين الإسلامي هو دين الحق وهو حقيقة إلهية يقينية الدلالة بالثبات والكمال، وهو دين واحد في هدفه وإن تعدد الأنبياء والرسل في الدعوة إليه إذ مرد التعدد كان لحكمة، باعتبار أن الناس تختلف ألسنتهم وقدراتهم واستعدادهم من أمة إلى أخرى، أو من جيل إلى جيل، فيخرج الله نبياً من بينهم يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ولا شك أن هذا أوقع في النفس، باعتباره من بيئتهم، ويتكلم لغتهم، ويدرك مشاكلهم، ويعلم

(1) سورة يونس، الآية: 84.
(2) سورة آل عمران، الآية: 52.
(3) سورة آل عمران، الآية: 85.
(4) سورة آل عمران، الآية: 81.

خصائصهم، ويبين لهم الحق والخير. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1] ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[2]. وإلى هذا أشار الله في كتابه فقال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[4].

هذا والإيمان برسول يقتضي الإيمان بكل المرسلين، كما أن الإيمان بكتاب من كتب الله يقتضي أيضاً، الإيمان بجميع كتبه، والحكمة في ذلك، أن الدين يدعو إلى وحدة الإيمان، وهذا ما يحقق القوة والتكاتف، فالله يرفض التفرقة بين الرسل، والإيمان ببعض الرسل دون بعض، معناه الكفر بالآخرين، فالإيمان إذن يقتضي التصديق بجميع الرسل وبجميع الكتب السماوية التي أنزلت. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[5].

ومن منطلق الوحدة وعدم التفرقة بما تدعو إليه الرسل والأنبياء، فقد أعطى الله سبحانه وتعالى أجمل صورة بحبه للأنبياء وتقديرهم في جهادهم في سبيل الدين ووحدته، وحياهم أحسن تحية، ووصف كلاً منهم وصفاً في غاية الروعة، والدلالة على ما يليق بهم، لهذا لا يسوغ إنكار أي رسول، فإنكاره هو إنكار لوحدة الدين. وقد ذكر الله تعالى هؤلاء الأنبياء ووصف كل واحد منهم بما أراد به وأخبرنا عنهم في القرآن فقال:

عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[6].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 32.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 51.
(3) سورة الرعد، الآية: 7.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 4.
(5) سورة النساء، الآيات: 150 ـ 152.
(6) سورة النحل، الآية: 120.

وعن داود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1].

وعن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2].

وعن إدريس: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿56﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[3].

وعن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[4].

وعن يونس: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5].

وعن يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[6].

وعن لوط: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[7].

وعن موسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[8].

وعن هارون: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[9].

وعن نوح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[10].

وعن زكريا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[11].

وعن يحيى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[12].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 251.

(2) سورة ص، الآية: 30.

(3) سورة مريم، الآيتان: 56 و57.

(4) سورة ص، الآية: 44.

(5) سورة الصافات، الآية: 139.

(6) سورة يوسف، الآية: 24.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 75.

(8) سورة الأعراف، الآية: 144.

(9) سورة الأنبياء، الآية: 48.

(10) سورة آل عمران، الآية: 33.

(11) سورة مريم، الآية: 2.

(12) سورة آل عمران، الآية: 39.

وعيسى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿45﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[1].

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[2].

هذا وذكر القرآن جميع الأنبياء، هود، وشعيب، وصالح، إدريس، وإلياس عليهم الصلاة والسلام من خلال عرض سيرهم قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[3].

جميع هؤلاء الأنبياء أيضاً كان هدفهم وحدة الدين، ووحدة الله، وعبادته، والقضاء على الأوثان وملة الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[4].

وهكذا تبين لنا أن الله دعا إلى وحدة الدين جميع أنبيائه، وأنزل لهم الكتب يدعون بها العقول والأفئدة عند الناس، إلى الإيمان به والعمل بمقتضى أحكامه في التعامل والعبادة والعمل على التآزر والتكاتف، فهي دعوة إلى الحق والخير، ودعوة إلى الجمع، لا إلى التفرقة والتشتيت. قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[6].

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 45 و46.

(2) سورة البقرة، الآية: 253.

(3) سورة غافر، الآية: 78.

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة آل عمران، الآية: 103.

(6) سورة الشورى، الآية: 13.

الفصل الثاني

مقوّمات الدّين الإسلامي وخصائصه

يتميز الدين الإسلامي في حقيقته وضرورته بأنه نظام موحى به من السماء تقتضيه هذه الحياة، بما تضمنه من عقيدة، وشريعة، وسلوك فهو يدعو إلى وحدة الربوبية، ووحدة الألوهية، وهو دين الفطرة والهدى، يؤمن به المرء بإرادته طوعاً، ويهتدي إليه بفطرته، بهدي الله، قال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

فالدين الإسلامي باعتباره ضرورة للسعادة في الدارين في الدنيا والآخرة، وهو حقيقة دينية أبدية ثابتة ومحفوظة يقوم على مقومات وهي حقائق مسلم بها: الله، والرسول، والوحي، والدعوة. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2].

فالدين الإسلامي إذن هو دين الله، وصى بتعاليمه في أصوله عقيدة وشريعة النبي ﷺ عن طريق الوحي، فتلقاه من ربه منجماً متدرجاً، روعي في نزوله تقدير الطاقة الإنسانية، وعدم الحرج.

---

(1) سورة القصص، الآية: 56.

(2) سورة الشورى، الآية: 13.

هذا الدين إذن مصدره الله، لذلك جاء معصوماً من الخطأ لا علاقة لعقل بشري في تأليفه فرداً كان أو جماعة، إنما هو نبراس، وهدى للعقل البشري وطريق سوي، فرض أتباعه لقيام الإيمان وصحته، وتقويم السلوك البشري عامة، بالقرآن الكريم، والحديث القدسي، والسنة المطهرة.

هذا الدين الإسلامي بما فيه من تشريع، لم يكن من وضع الرسول، إنما كان بوحي من الله لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1].

فمصدر التشريع إذن ليس الرسول ﷺ إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وكان إذا عرضت مسألة تقتضي الاجتهاد من الرسول ﷺ، فقد كان يتريث بالبت فيها إلى أن ينزل الوحي بها، فإما أن يصوبها أو يردها، فالوحي إذن هو المرجع لأن الدين، دين الله، وكلمته هي العليا، بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾[3].

وقوله تعالى في ارتضائه هذا الدين للبشر عامة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4].

مما تقدم يتبين لنا أن الدين الإسلامي يتميز بخصائص هامة نعرضها فيما يلي:

❖ في خصائص الدين الإسلامي:

أولاً: إنه دين للناس كافة يتأمرون بأمره وينتهون عن نواهيه.

ثانياً: إنه دين تفرد في هذا الكون بكماله وتمامه وأبديته فلا دين بعد دين

---

(1) سورة النجم، الآية: 10.
(2) سورة النجم، الآيتان: 3 و4.
(3) سورة الفتح، الآية: 28.
(4) سورة المائدة، الآية: 3.

الإسلام، ولا وحي بعد القرآن، وهو محفوظ ودائم إلى يوم الدين، قال تعالى مشيراً إلى استمراره، بحفظ القرآن وصونه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

ثالثاً: إنه دين سلوك وتهذيب فردي واجتماعي، كما أنه دين عبادات ومعاملات، إذ يحدد علاقة الإنسان مع ربه، وعلاقته مع أخيه المسلم، وعلاقته مع مجتمعه، وعلاقة الجماعة فيما بينها، وعلاقته مع الكون والحياة، كما أنه دين يرعى العبادات، والمعاملات المالية والاقتصادية، وينظم أسسها، بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة والأمة، بأسس تشريعية عادلة، كما ويحقق التوادد والتراحم، والتعاطف، لإقامة علاقات إنسانية تكفل بناء المجتمع واستمراره بإطراد وثبات. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[2].

رابعاً: إنه دين خال من الأساطير والخرافات باعتبار الدين الإسلامي لا يلغي حكم العقل، بل يخاطب العقل، والنفس، والقلب، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4].

خامساً: إنه دين علم وعمل، أي أنه ليس بدين تجريدي بل دين يحقق السلوكية الخيرة، ويحض على العلم تتبعاً واستقصاء، لتحقيق المصلحة الحياتية بروح جادة، وعمل مستمر، وعبادة قائمة، فهو دين متفق مع كمال الله ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(1) سورة الحجر، الآية: 9.
(2) سورة الحجرات، الآية: 13.
(3) سورة الحج، الآية: 46.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 5.
(5) سورة التوبة، الآية: 105.

سادساً: إنه دين إلهي وليس بوضعي، نزل من عند الله على محمد ﷺ، قوامه القرآن الكريم، وهو كامل بكمال الله، لا يأتيه الباطل، ولا يحرف ولا يبدل، محفوظ من قبل الله، تقوم أحكامه ومبادئه على تحقيق ما فيه الخير في الدنيا والآخرة. فهو صالح ومستوعب لأغراض الدين وأهدافه بكل زمان ومكان.

سابعاً: إنه دين راعى الطاقات الإنسانية، فأحكامه لم تنزل دفعة واحدة بل ابتدأ بالعقائد، ثم بالأخلاقيات، ثم بالعبادات، ثم بالمعاملات، كل ذلك تبعاً لمصلحة المجتمع في كل فترة، مع مراعاة التكييف النفسي، ومعالجتها تربوياً، كل ذلك بما يساعد على الشعور بممارسة الحرية عند المسلم، ليكرس نفسه لطاعة الله أولاً، ثم لخدمة شؤون نفسه ثانياً، كل هذا عن طريق القيام بالتكاليف التي قدر بها طاقة الإنسان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

فهو دين يقيم التوازن والتناسب بين مبادئ التشريع وحاجات المرء، بما ينعكس فائدته على المرء والمجتمع.

ثامناً: إنه دين يسر لا حرج فيه. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3].

فالدين الإسلامي تبعاً لهذا نلاحظ أن تكاليفه تتفق مع تلبية طبيعة الإنسان، على وجه الاعتدال دون مشقة تضيق بها الصدور، أو إرهاق تهلك بها النفس أو المال، فهو دين معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، يجنح للتخفيف حتى في نطاق ثبوت الإيمان، وفي نطاق الاعتقاد بالله، يكتفي بالإشارة بالسبابة إلى السماء. وقد أورد الفقهاء أمثلة عديدة، على سبيل المثال في التخفيف، ففي العبادات

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة البقرة، الآية: 185.

(3) سورة الحج، الآية: 78.

مثلاً يوقف التكليف في حال قيام عذر، كوقف فرض الحج عند عدم توفر الأمن، وفي الصلاة، يكتفي بالإيماء، إذا شق على المصلي القيام والقعود، وكذا القصر في الصلاة، والإبدال بالتيمم عوضاً عن الوضوء، عند عدم توفر الماء، أو الخوف من استعماله، والإباحة في الإفطار في الصوم، إذا كان المرء مريضاً أو على سفر، أو كان الصوم يوقع في مشقة لا تحتمل، كما أجاز الفقهاء التقديم كالجمع في عرفات، وكذا التأخير كالجمع بمزدلفة، وكذا التغيير في نظام الصلاة وقت الخوف، وكذا أباح المحظورات عند الضرورات، كالترخيص في المحرمات، كأكل لحم الميتة عند المخمصة[1].

تاسعاً: إنه دين الوحدة والوحدانية خالص لله يدعو إلى وحدة الألوهية والربوبية، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾[3].

هذا الدين إذن ينهي عن الفرقة والتشيع. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[5].

وهكذا نجد أن الحقيقة هي حقيقة الدين، دين رب العالمين، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[6].

---

(1) محمد شلتوت ـ من توجيهات الإسلام ص22 ط1980.

(2) سورة التوبة، الآية: 31.

(3) سورة الزمر، الآية: 3.

(4) سورة النساء، الآية: 48.

(5) سورة الأنعام، الآية: 159.

(6) سورة المائدة، الآية: 48.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿18﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

والمراد بالمنهاج هنا الطريق. قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿16﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[2].

فالشريعة إذن هي الأصل، والمنهاج هو الطريق الذي يسلك فيه الإنسان، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين، فالدين الإسلامي هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، وهي الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، ولا يستسلم المرء لغيره، ومن استسلم لغيره كان مشركاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3] [4].

هذه بعض خصائص الدين الإسلامي، وهي في جميع الأحوال أسس وتعاليم إلهية ترمي ـ بحكم خلق الإنسان ـ إلى الهدى والخير، والعدل، والمساواة والتوادد، والتراحم، وتوجيه المجتمع، وإقامته بما يكفل تحقيق التضامن والتكافل فيه، من خلال الصراع النفسي، بين قوى الخير والشر، طالما أن الإنسان قد خلق في هذا الكون، وجعل خليفة في الأرض لإعمارها، وصيانة الحقوق والحريات فيها، فلا بد إذن من قانون ينظم هذه السلوكية، والعلاقات المالية، والاقتصادية، من خلال ذلك الصراع بين القوى.

من خلال هذا المنظور اختلفت الديانات، وقامت النظم الوضعية، كلها لهذا الغرض، ولما كانت هذه الأنظمة السلوكية، يختلف الحكم عليها، من خلال اختلاف المفاهيم والإدراكات في الحكم عليها، لهذا كانت النتائج مختلفة، تبعاً لاختلاف العقول والمفاهيم، فما هو خير بنظر مذهب ما، قد لا

---

(1) سورة الجاثية، الآيتان: 18 و19.

(2) سورة الجن، الآيتان: 16 و17.

(3) سورة النساء، الآية: 48.

(4) ابن تيمية الفرقان ص67، ك4، 1397هـ.

يكون كذلك بنظر أصحاب مذهب آخر. ومن هنا تعددت الأنظمة واختلفت المذاهب دينية كانت أو سياسية، كل يدعي صلاح مذهبه، ولكن من الثابت أن معظم هذه المذاهب كانت مختلفة المقاصد والبواعث، ترمي إلى تحقيق نزوات شخصية، أو حزبية أو عرقية أو عنصرية، أو طائفية، أو عصبية تحت مظلة المصلحة العامة.

ومهما يكن من أمر هذه المذاهب، حتى ولو كانت حسن النية هي الرائدة في كل مذهب أو نظام، فإن هذه المذاهب أو القوانين المعتمدة على العقل والموضوعة من قبله لا بد وأن تخلف ثغرات في التطبيق، لأنه ما من عقل يستطيع توقع اختلاف الأحداث وتطورها في المستقبل، وسد الثغرات فيه، مهما أوتي من دقة في وضع الأحكام الشاملة، فلا بد إذن أن تتخلف ثغرات، داعية إلى تغيير المذاهب والقوانين والأنظمة، نتيجة لظهور قصور فيها، ويقول (توماس الاكويني) في تعريف الشريعة الوضعية:

«إن الشريعة الوضعية إنما هي إقرار من العقل بصدورها من صاحب السلطان في الأمة لتحقيق الخير المشترك»[1]. وإذا سلمنا بهذا التعريف فإن العقل مهما سما، لا يمكن أن لا يعتريه القصور، وبالتالي فالقوانين المستمدة من العقل، وهي من وضع البشر، لا بد وأن يشوبها القصور.

من هذا المنظور نجد، أن الدين الإلهي دين من تدبير الإله الحكيم العليم في كونه والخبير في خلقه، فهو أدرى حيث يضع حكمته في نظامه، ويصيغ دينه ورسالته. فضلاً عن أن طبيعة البشر قد تحترم القوانين حيث يجدها تطاله فالاحترام والتقدير والطاعة مردها جميعاً إلى الخوف من تلك القوانين والأحكام الصادرة عن إرادة الإنسان، أما الصادرة عن الله، فاحترامها وتقديسها مرتبط باحترام الله وتقديسه، وطاعته بما يرضيه، فلا يخادع، ولا يغش، ولا يخون، بل يصدق في أقواله وأفعاله، عملاً بتعاليم الله. فالمعيار الصحيح للسلوك إذن

---

(1) توماس الأكويني ــ الموسوعة اللاهوتية.

هو الضمير، والوازع الديني الذي تستقيم به السلوكية في الحياة، نتيجة لهدي الله وأتباعه. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

فالقوانين التي تحقق سعادة البشر، تلك التي تصدر عن الله، فهي ذات أحكام مثلى لتنظيم شؤون الحياة ورعاية الإنسان، بجميع أطوار حياته وألوانها والله أعلم بها، فلا يمكن إذن للقوانين الوضعية مهما سمت أن تحقق نفس الغرض، وفرق كبير بين رعاية الله للإنسان، ورعاية الإنسان للإنسان، فالعناية الإلهية هي ملاذ البشر، ومن هذا المنطلق أرسل الله الرسل والكتب لتؤمن بالله وتتعلم الحكمة، وهذا ما كان قد طلبه وآمن به إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[2].

وهكذا نلاحظ، أن الرسائل الإلهية تبقى دائماً هي الضمان الوحيد لخير البشر، وهي القادرة على تحقيق السعادة للإنسان في ضوء تقلبه في الحياة، وتطور احتياجاته، وقد تجلى ذلك بالرسالة الإلهية التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فدعا برسالته إلى هداية البشر، وكان القرآن الكريم آخر كتب التنزيل، رسم طريق الهداية والنور، فمن اتبعه لن يضل ولن يشقى، ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[4].

---

(1) سورة ه، الآيتان: 123 و124.
(2) سورة البقرة، الآية: 129.
(3) سورة هود، الآية: 1.
(4) سورة الإسراء، الآية: 9.

الفصل الثالث

الدّين الحق

الدين الإسلامي حقيقة ثابتة بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ، وهو الحق الذي جاء من الله بقصد اهتداء البشر به. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[1].

هذا الحق الذي جاء من عند الله يهدف إلى حقيقة دين الله، وهو الدين العام، الذي بعث به كل رسله، هذا الدين هو الإسلام، الذي نبأ في جميع كتب الله السماوية، والتي جميعها تهدف إلى الحق الذي به يسعد البشر، وتستقر معاملتهم حوله، وتطمئن نفوسهم به، وتتهذب به الأخلاق، وتتروض به الروح، ويتماسك به المجتمع، ويتجه وجهته نحو الخير، هذا الدين هو الدين الواضح الميسر، والبعيد عن التعقيد، والسليم من التحريف والتبديل، الناس بأمس الحاجة إليه، وهو ضرورة إنسانية، خاصة وأن هذه الدنيا بطبيعتها صراع نحو المادة، والجشع، والمزاحمة نحو الاستغلال والسيطرة، واستعباد الناس، لا سيما وأن الدول الكبرى من خلال هذه الصراعات في تسابق نحو التسلح، بدافع السيطرة، مما ينذر بحرب كونية بتدمير العالم إن لم يتحكم الفكر

(1) سورة يونس، الآية: 108.

العقلاني، لتحقيق الخير والحب والسلام ومثل هذا الفكر العقلاني يكمن في العقيدة الإسلامية التي تهدف إلى خير الإنسان والمجتمع، وإلى تحقيق التآخي والمحبة، والتي تخاطب إنسانية الإنسان، وهي بلا شك دين الحق الذي يهدي إلى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

هذا الحق الذي أنزله الله، إنما هو مركز دائرة الدين الإسلامي، الذي تستقطب حوله كافة تعاليمه، من عقيدة وعبادات، ومعاملات وسلوكية وأخلاق، وهو الذي نزل على الرسول محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[2].

هذا الحق الذي نزل على الرسول محمد ﷺ ودعا إليه، وهو واحد في موضوعه، وإن اختلفت وجوهه، وهذه الوجوه المختلفة مع ذلك، تعكس حقيقة واحدة وهي خير الإنسان وخير المجتمع، ويتجلى ذلك فيما يلي:

1 ـ الحق في العقيدة:

هذا الحق هو الأساس في الإسلام، إذ لا إسلام لمن لا عقيدة له، فالعقيدة إذن هي الإيمان بوجود الله ووحدانيته، وتفرده في خلق هذا الكون بما فيه من مادة وحياة وروح، له سلطانه في كل ما خلق، منفرد في عزته وقوته، لا شريك له، إليه تخضع النفوس وإليه ترجع الأمور. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3].

---

(1) سورة النساء، الآيتان: 174 و175.

(2) سورة النساء، الآية: 170.

(3) سورة الإخلاص، الآيات: 1 ـ 4.

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

2 ـ الحق في العبادة:

الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، يسبح له ما في السموات وما في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].

فالله سبحانه وتعالى حقيقة في العبادة، وهو ليس بحاجة إليها، إنما هي تقويم وتهذيب للنفس، والمراد بالعبادة المعنى العام سلوك تجاه الله، وهي من مقتضى الإيمان، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، إنما هو إيمان بالطاعة والتصديق، والصدق، والعدل، والمعروف، والخير، فهذه الطاعة بما أنزله الله على رسوله إنما هي عبادة، فالطاعة والصلاة عبادة، والصوم عبادة، التعامل بالحق والخير عبادة، والسلوكية عبادة، والخوف من الله في كل لحظة، ومراقبة نفسك أمام الله، وتوخي مرضاة الله، واتباع المرء لما شرعه الله. كل هذه الأمور هي العبادة الحقيقية، وهي المقصودة لذاتها بالمعنى العام، وما العبادة بالمعنى الخاص إلا تهيئة للنفس لهذه العبادة العامة، وهي التربية العليا المنشودة، فذكر الله قياماً وركوعاً وسجوداً، والاستهداء بهديه لنيل مرضاته، والابتعاد عن معصيته، كلها معايير وضوابط لسلوك الإنسان ليبقى على صلة مع الله، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[5].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 54.
(2) سورة الذاريات، الآية: 56.
(3) سورة الأنعام، الآية: 102.
(4) سورة طه، الآية: 14.
(5) سورة إبراهيم، الآية: 31.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

وهكذا تبين لنا أن بناء الحياة الإسلامية قائمة على حقيقة، وهي دعائم الإسلام وأركانه، فمن أقامها فقد أقام الدين.

3 ـ الحق في المعاملات:

المعاملات على المستوى الاقتصادي سلوك مدني، يحدد به الحقوق والالتزامات في ضوء العقود، تبعاً للشروط، وفي ضوء المصلحة العامة، فالتعامل في الإسلام مقتضاه احترام العقود والوفاء بالعهود، إذ المسلمون عند شروطهم. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[4].

كما أن الإسلام يدعو إلى احترام ومحافظة ما اؤتمن عليه المرء ورده عند الطلب، تحقيقاً للثقة واستمراراً للتعامل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[6].

فمقتضى الإسلام إذن أن يكون المرء صادقاً في تعامله، موف لعهده مؤد للأمانة شاهداً على الحقيقة لوجه الله، قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[7].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.
(2) سورة الإسراء، الآية: 34.
(3) سورة آل عمران، الآية: 77.
(4) سورة المعارج، الآية: 32.
(5) سورة البقرة، الآية: 283.
(6) سورة النساء، الآية: 58.
(7) سورة النساء، الآية: 135.

هذه الأسس المستمدة من القرآن والسنة، قد استنبطها علماء الأصول والفقه الإسلامي، وهي أسس قانونية عالية، لا يرقى إليها أي قانون وضعي، وهي صالحة لمتطلبات الحياة، وما فيها من تعامل على اختلاف أنواعه، فهي أسس تساير مقتضيات العصر في كل زمان ومكان، وتفي بحاجاته، باعتبارها مستمدة من شريعة الله.

هذه المبادئ لا تماري حتى بما فيها من اختلاف المذاهب في الفروع، إنما هي ثروة علمية تقوم على تحليلات منطقية، واستنتاجات تفيد التيسير، تبعاً لاختلاف العلماء في هذه الفروع، فضلاً عن أن معيار الأخذ بأيسر المذاهب يستجيب لجميع مطالب الحياة في العصر الحديث.

4 ـ الحق في السلوك:

إذا كان الدين الإسلامي عقيدة وتعاملاً، فهو في الوقت ذاته سلوك وأخلاق، يقوم على الإحسان والعدل، والحرية والرحمة، بكل ما يحقق رسالته في السلوك بلطف ولين، دون عنف أو فظاظة، فهو يدعو إلى العفو والمغفرة، ودفع السيئة بالحسنة التي هي المعيار السليم لكسب القلوب، وإقامة الصداقة، كما يدعو إلى المشاورة والمشاركة في الرأي. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

فالسلوك الذي دعا إليه الإسلام، إنما هو سلوك يقوم على العدالة، والعدالة ضد الظلم، وهي التي تقتضيها طبيعة الإنسان بفطرته، فما من عقل

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 159.

(2) سورة فصلت، الآية: 34.

سليم في الإنسانية، إلا ويركن إلى حيث يقوم العدل فهو أساس للسلوك البشري الذي نادى به الله وجعله سنة في الحياة والذي خضع إليه الكون جميعه، وأن كل شيء، يسبح بحمده. فبالعدل يتحقق توازن التعامل بين الناس، وتطمئن النفوس، ويستمر التعامل، وفي غير ذلك ظلم غير مقبول محرم ومرفوض، وقد حرم الله الظلم، إذ ورد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» وإذا كان العدل لا تستقيم الحياة إلا به، وهو على اختلاف أنواعه، عدل في المكافأة أو العقاب، يقتضي توزيع الغرم بالغنم، قاعدة عامة على الناس جميعهم بالتساوي، وعدل في المبادلات التي تقوم على أساس المعاملات بين الناس، وعدل في السلوك الإنساني مع الناس، وعدل في القول. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

فالعدل إذن شعور ينبع من أعماق النفس الإنسانية، وينبثق عنها، بيد أن هذا الشعور بفحواه وإن كان ينادي به أنصار القانون الطبيعي ذاته، ويرونه ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل، بيد أن هذا القانون الطبيعي لم يتفق الفقهاء الغربيون على مضامينه، فضلاً عن أنه قد يختلف تبعاً لاختلاف الشعور واختلاف الزمان والمكان، فمعاييره والحالة هذه إذن مختلفة في الزمان والمكان، فما يكون عدلاً في زمن ما قد يكون ظلماً في زمن آخر، فظاهرة وأد البنات مثلاً شعور طبيعي أقرته الجاهلية، بينما هذه الظاهرة اعتبرها الإسلام في منتهى الظلم، فالمعيار الحقيقي في سلوك العدالة، هو ما أنزلته الشريعة الإسلامية، وأمرت باتباعه، فالعدل حقيقة دعا الإسلام إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2].

ففكرة اللجوء إلى العدالة، بمرتكز ومفهوم القانون الطبيعي، إنما هو من صنع العقل البشري، إذ اعتمد كاحتياط، ليدرأ به القصور المتوقع في القانون

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 152.

(2) سورة النحل، الآية: 90.

الوضعي، وهذا بالطبع غير وراد في الشريعة الإسلامية، باعتبارها قائمة أصلاً على العدل الإلهي في جميع أحكامها، والتي هي الرائدة للحكام والمشرعين في اليقين.

فالعدالة الإسلامية حقيقة سامية، لم تبلغها أي قوانين وضعية، أو وصايا إنسانية، ذلك لأن هذه العدالة هي عدالة مطلقة وعامة، تقوم على حماية الحقوق بصرف النظر عن أي اعتبار فهي تحقق لكل ذي حق حقه حتى ولو كان صاحب الحق عبداً.

في ضوء خصائص الإسلام وحقيقته، نلاحظ أن الدين الإسلامي قد تناول النفس الإنسانية لتقويمها وتهذيبها، ورسم السلوكية للإنسان في الحياة الدنيا، تحت طائلة المساءلة في الدنيا والآخرة، كل هذا في سبيل خير البشرية جمعاء.

فالدين الإسلامي إذن جاء تزكية للنفوس وتطهيراً للقلوب، وإقامة روح الامتثال والطاعة لله ولرسوله، بسلوكية تضمن الخير والصلاح للمجتمع، بتعامل يقوم على العدل والمساواة، من خلال ارتباط الإنسان بخالقه الذي يعلم السر وأخفى، وهو المتجلي على عباده.

هذه السلوكية التي هدف إليها الدين الإسلامي، قد حدد لها فرائض ومبادئ وأسس تشريعية ملزمة، وهي أساسيات الإسلام، أما الفروع الجزئية، فقد ترك للمجتمع الإسلامي أن يشرع في ضوء المصلحة العامة، وتبعاً لتطور الحياة، وذلك عن طريق الشورى والتبادل بالرأي، تجنباً للهوى أو المصالح الخاصة، وبما يحقق العدل والإحسان والمساواة. وإلى هذا أشار محمد ﷺ فقال: «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء، فلا تنهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**».

هذه التشريعات الجزئية المتروكة للمسلمين تبعاً لمبدأ الشورى، التي فوض الحكم فيها لهم، لم تترك دون رقيب. فالمسلم يعلم علم اليقين أن الله

رقيب عليه، ومطلع على أعماله ومسائله عنها. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

هذه ميزات وخصائص الدين الإسلامي عرضناها بإيجاز، فهو دين يخاطب عقل الإنسان وضميره ووجدانه ليوقظ شعوره ويوجه عمله نحو الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، والفسق والفجور والفساد، من ظلم واستبداد، واستغلال، واحتكار، ومزاحمة، وأكل أموال الناس بالباطل. إنه دين الحضارة الإنسانية، وسيبقى خالداً، لأن قوامه وأصوله وقواعده سار عليها الرسل والنبيون بوحي من ربهم، إنه دين منهجه القرآن، وروحه الإيمان عقيدة وشريعة، وهدفه الإنسان ليبعث فيه أكمل الصفات الإنسانية والاجتماعية من حب، وإيثار، رحمة، وتعاون، وبر، وبذل في الحق والخير لإقامة المثل العليا في أرض الله. هذا الدين لا بد وأن يسود ولو كره الكافرون. فأي عمل أجل من أن يدعو المرء إلى هذا الدين لتعميمه لينقذ الإنسانية من هذه الأوضاع المتردية.

❖ ظلمات الجاهلية:

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام في تشتت ديني، وتدهور اجتماعي، وانحلال أخلاقي، فكانت الوثنية الجاهلية هي الطابع الأساسي للتدين الشعبي العام، أما الديانات الأخرى، فلم تكن لتحقق الغرض باعتبارها قد خرجت عن مضمونها وفحواها، وحورت الكتب المرسلة وشوهت فيها، فجاءت متناقضة، فضاعت الحقيقة فيها.

فاليهودية لم تكن سوى شريعة دنيوية مادية، بعيدة عن تعاليم نبي الله موسى عليه السلام، لم يطبق من تعاليم الوصايا العشر شيء، بل كانت المصالح الأنانية، وحب المال، والتنجيم والسحر، وإحاطة الدين بالغموض خاصة، هي السائدة.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 220.

أما المسيحية فكانت متعددة المذاهب، شيعاً وأحزاباً، كل واحدة تتنكر للأخرى وتتعصب لتعاليمها، مما أتيح بها العداوة والبغضاء، وانتشر الخلاف، واختلفت المفاهيم الدينية، حتى حول شخصية المسيح، ففريق أنكر أن لعيسى جسداً، ورأى أنه ما هو إلا طيف يظهر به للناس، وفريق آخر يزاوج بين شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج إلى كثير من الجهد للتصور والتأمل، كما أن هناك مع ذلك من كانوا يعبدون مريم، بينما نجد غيرهم ينكرون بقاءها عذراء بعد وضعها المسيح، وكان اختلاف هذا المنظور في قيمهم الدينية أدى إلى قيام جدل عقيم، وسفسطة فارغة، سادت كافة تصرفاتهم حتى وصلت إلى السوقة، حيث أضحى الجدل الديني قائماً عند الباعة والصيارفة.

وكان العرب في الجاهلية من خلال هاتين الديانتين متأثرين بهما، فبعضهم يدين بدين المسيحية، ومن هؤلاء عرب الغساسنة في الطرف الشمالي للجزيرة العربية، ويقول ابن قتيبة: إن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة[1]. وكانت اليمن، قد توالت عليها عدة ديانات، فقد كانت تدين باليهودية في عهد (ذي نواش)، ثم أضحت مسيحية بفتح (النجاشي) لها بناء على أوامر (جوستينيان)، ثم أضحت مجوسية عندما تغلب جيش كسرى على جيش قيصر الروم[2].

أما شرقي الجزيرة العربية، فقد كانت اليهودية، في بني الحارث، وحمير من بلاد اليمن السعيد، كما كانت في يثرب، حيث أقامت قبائل من قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع[3].

هذا وقد ظهر إلى جانب هاتين الديانتين، مظاهر أخرى من التدين للموحدين الحنفاء، والباحثين عن العدل الديني، والمنتظرين للدين الصحيح الخاتم[4].

---

(1) ابن قتيبة، المعارف ـ ص208.

(2) رؤوف شلبي ـ المجتمع العربي قبل الإسلام ص149.

(3) رؤوف شلبي ـ الأديان القديمة في الشرق 1983 ص61.

(4) رؤوف شلبي ـ الأديان القديمة في الشرق 1983 ص61.

والواقع «إن أديان العرب كانت تختلف حسب الممالك المجاورة في الأرض التي ينتجعونها، وكان بعضهم متزمتين يشددون على أنفسهم وهم من صنف (الحمس)، فكانوا إذا نسكوا لم يسلوا سمنا، ولا يجزون شعرا، ولا ظفرا، ولا يمسون نساء، ولا يتطيبون بطيب، ولا يأكلون لحما. أما الصنف الآخر وهم (الحلة) فكانوا على عكس ذلك، ينعمون بالطيبات، ولا يبالون فيما يصنعون، ومع ذلك فقد تغير الانتماء للديانات، فدخل بعضهم اليهودية وفارقوها، كما دخل آخرون في النصرانية، وتزندق منهم، كما كان العرب من يميل إلى الصابئة، ويعتقد في أنواء المنازل، ولا يتحرك إلى بنوء من الأنواء، ومنهم من أنكر الخالق والبعث، وهم الدهريون الذين قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر، كما اعتنق البعض مذاهب أخرى كالمجوسية في تميم، والزندقة في قريش، حيث أخذوها من الحيرة، ومع ذلك فقد كان صنف من العرب اعترفوا بالخالق، ولكنهم أنكروا البعث، وصنف آخر عَبَدَ الجن، وآخرون عبدوا الملائكة، وصنف عبد الأصنام، وأصنامهم مختصة بالقبائل، فكان (سواع) لهذيل، و(ود) لكلب، و(يغوث) لمذحج وقبائل اليمن، و(نسرا) لذي كلاع بأرض حمير، و(يعوق) لهمدان، و(اللات) لثقيف بالطائف، و(العزى) لقريش، وجميع بني كنانة، و(مناة) للأوس والخزرج وغسان، و(هبل) كان في الكعبة، وكان أعظم أصنامهم، و(إماف) و(نائلة) كانا على الصفا والمروة، و(سعد) لبني ملكان بن كنانة، وكانت عدد الأصنام في الحرم بضع مئات، ومع هذا كانوا يحجون البيت ويعتمرون، ويحرمون ويطوفون ويسعون»[1].

هذه الأصنام يحدثنا عنها القرآن الكريم، ويبدو أنها كانت في قوم نوح الذي دعا قومه إلى توحيد الله جل جلاله، وترك واد، وسواع، ويعوق، ويغوث، ونسرا[2].

---

(1) ابن الأثير أشار إليه محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية.

(2) هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم =

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1].

وإلى جانب هذه الديانات المضطربة والمتشعبة، والوثنية السائدة كتدين شعبي عام، فقد رافقها انحلال خلقي واجتماعي، فكانت النساء متعاً يعاشرن دون أي قيد، فكانت المعاشرة دون أي عقد زواج، وبصرف النظر عن درجة القرابة المانعة، فقد يتزوج الرجل زوجة أبيه، كما أن وأد البنات كان قائماً دون رأفة أو شفقة، وكان الظلم سائداً في مختلف العلاقات والمعاملات، بحيث كان المجتمع العربي ممزقاً ومنحلاً، يعيش في سبات عميق من الظلم والفوضى، إلى أن جاء محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين برسالة الحق: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

هذه حالة العرب قبل الإسلام كانوا في وثنيتهم وعقائدهم الفاسدة وانحلالهم الأخلاقي يعمهون. إلى أن جاء الرسول محمد ﷺ، بدعوته إلى الحق، فما هي هذه الدعوة وما هي أسسها؟

= ان انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك عبدت تفسير ابن كثير ج4، ص426.

(1) سورة نوح، الآية: 23.

(2) سورة الإسراء، الآية: 81.

الفصل الرابع

الدعوة إلى رسالة الحق

رسالة الإسلام التي دعا إليها الرسول محمد ﷺ هي دعوة إلى الحق، حق الله تعالى على الناس جميعاً، دعوة إلى الإيمان به وبمحمد رسوله. . وقد عرف ابن تيمية الدعوة إلى الله بقوله: «هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أسروا»[1].

فالدعوة إلى الله، هي دعوة إلى الحق بجميع صوره، هي دعوة إلى الإيمان بالله، وتوحيده في عبادته، والاستعانة به.

والدعوة إلى الحق هي دعوة إلى العدل ومكافحة الظلم والطغيان.

والدعوة إلى الحق هي دعوة إلى تقويم النفس الإنسانية وتطهيرها من الانحرافات وتهذيب الأخلاق والقضاء على التقاليد الفاسدة للإنسان والمجتمع، فهي دعوة إلى مكارم الأخلاق، والدعوة إلى الحق هي دعوة الرسل جميعاً، التي من أجلها بعثهم الله في الأرض، ليقيموا الإيمان في الأرض ويقوموا نفوس الناس وسلوكهم ومعاملاتهم، وليلتزموا بطاعة الله وعبادته، وطاعة رسله.

«والدعوة إلى الله هي دعوة إلى كل ما أحبه الله ورسوله من واجب

---

(1) ابن تيمية ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ج15، ص157.

ومستحب، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ـ أي عن معاصيه ـ، ولا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله، ويترك ما أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة»[1].

فجميع الرسل الذين اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها للناس، إنما دعوا إلى عبادة الله والتبرؤ من عبادة سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

هذه الدعوة إذ هي مخصصة للرسل ومطلوبة منهم تكريماً لهم، فلا يسوغ أن يحرم من فضلها وثوابها المؤمنون أنفسهم فمن حقهم وواجبهم أن يدعوا لها. قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

هذه الدعوة إذ وردت على معنى التخصيص للرسل، فهي تحمل معنى العمومية للمؤمنين، فلئن خاطب الله رسوله ليدعو أمته إلى الإيمان بالله، فإن هذا الخطاب يدخل في شموله المؤمنون عامة لأن في هذا تكريم للمؤمنين، باعتبار أن الدعوة إلى الله من أشرف الدعوات، فلا يسوغ أن يحرم المؤمنون من شرف

---

(1) القرطبي ـ تفسير القرطبي ج4، ص47.
(2) سورة النحل، الآية: 36.
(3) سورة الحج، الآية: 67.
(4) سورة القصص، الآية: 87.
(5) سورة آل عمران، الآيتان: 113 و114.

هذه المهمة وفضلها وثوابها. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1].

فمن مهام التعاضد والتكاتف، والتضامن، القيام بأعمال البر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، رأسه الدعاء إلى الإسلام[2] وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى معززاً هذه الأمة الإسلامية ومكرماً لها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3].

فالأمة الإسلامية من خواص أعمالها إذ مكنت في الأرض أن تقيم شعائر الله، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[4].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل في شمول أعمال البر والتعاون، وهي من خصائص تعاليم الإسلام. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[5].

وقال تعالى بخصوص الحضّ على الإصلاح والنهي عن البغي وهو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

هذا الواجب إذ هو ملقى على مجموع الأمة، هو ملقى أيضاً على كل فرد، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، لأنها دعوة في صميم العقيدة، فإذا قامت بها طائفة سقطت عن الباقين.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 71.
(2) القرطبي ـ تفسير القرطبي ج4، ص47.
(3) سورة آل عمران، الآية: 110.
(4) سورة الحج، الآية: 41.
(5) سورة المائدة، الآية: 2.
(6) سورة النساء، الآية: 114.

وإلى هذا أشار ابن تيمية فقال: «فمجموع أمته (أي رسول الله) ﷺ تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمة الرسول ﷺ لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء، ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما أن كل واحد من الأمة يجب أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه، فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك، وقد سقطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة، وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو إلى الاعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب»[1].

وهذا ومما يلاحظ أن الدعوة إذ تجب على رجل معين ، فإن ذلك في حدود ما يقدر عليه، إذا لم يقم به غيره، هذا هو المراد في شأن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله، وتعليم مفهوم الإيمان، وتعاليم القرآن الكريم، ونشر هذه الدعوة، إذ من صميم الدعوة إلى الإسلام ومقتضاها العلم والعمل بما أمر الله به، والدعاء إلى الله وفي سبيل الله، والتصديق بما أخبر الله وطاعته فيما أمر. فهي دعوة إلى تقويم الإنسان والمجتمع ودعوة إلى نشر الدين خالصاً لوجه الله، في كل أنحاء المعمورة لأنه دين الحق.

هذه الدعوات إلى الحق، بكافة صورها، غايتها إقامة المجتمع النموذجي لحياة مثالية بإيمان راسخ مصدق لما جاء من عند الله. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2].

---

(1) ابن تيمية ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ج15، ص166.
(2) سورة البقرة، الآية: 177.

إلى جانب هذه الأسس دعا الإسلام إلى نظام اقتصادي سليم يهدف إلى مكافحة الاستغلال في المعاملات ومكافحة الربا، وإقامة الكسب، على قاعدة الكسب الحلال، بحيث تتحقق العدالة في الثروات طبقاً للعمل والسعي، وبهذا تنتهي الأحقاد والبغضاء والحسد، كل هذا كي لا تكون دولة بين الأغنياء منكم. قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾(1).

كما دعا الإسلام إلى الاتحاد، إذ الاتحاد قوة، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(2).

كما دعا الإسلام إلى التعاون والتكافل والتضامن، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(3).

ودعا الإسلام إلى الزكاة والصدقات، والإنفاق في سبيل الله، بغية التحرر من سيطرة المال وسد الحاجات والتكافل بين الناس. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(4).

وقال تعالى في الحض على الصدقات: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(5).

وقال تعالى في الإنفاق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(6).

أما في النظام السياسي، فقد دعا الإسلام إلى خير سبيل في إدارة الدولة،

---

(1) سورة الحشر، الآية: 7.
(2) سورة آل عمران، الآية: 103.
(3) سورة المائدة، الآية: 2.
(4) سورة البقرة، الآية: 110.
(5) سورة البقرة، الآية: 271.
(6) سورة البقرة، الآية: 254.

فأمر بالشورى باعتبارها الطريق الوحيد إلى نفي التحكم السياسي والصراعات الحزبية، طالما أن المعيار الحكم بما أنزل الله، فلا مصلحة لأحد للتسلط والاستئثار بالسلطة، لأن الحكم يقتضي ـ بحكم الإسلام ـ أن يكون قائماً على شريعة المجتمع، هو القرآن الكريم، وإطاعة الله وإطاعة رسوله بما أمر به، هذه الشريعة هي الحكم في كل ما يمكن أن يتنازع الناس فيه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1].

وقال تعالى ملزماً بوجوب الحكم بشريعته: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[5].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[6].

كل هذا في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، والجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[8].

كما أن هذه الدعوة دعوة تحررية، لتخليص البلاد وإنقاذها من ملة الكفر، فهي دعوة للاتحاد والوقوف في وجه المستعمرين، ملزمة للمسلمين عامة

---

(1) سورة النساء، الآية: 59.
(2) سورة المائدة، الآية: 49.
(3) سورة الشورى، الآية: 38.
(4) سورة آل عمران، الآية: 159.
(5) سورة المائدة، الآية: 44.
(6) سورة المائدة، الآية: 45.
(7) سورة التوبة، الآية: 41.
(8) سورة النساء، الآية: 75.

لمحاربة الكفر والاستعمار، ومكافحته في كافة صوره السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والصليبية، لتكون البلاد مستقلة بأهلها، تحكم بما أنزل الله، وتنتظم بشريعته، إذ الاستعمار لا يزال يمد سلطانه ليستغل الشعوب، ويستنزف ثرواتهم، وما من قوة تقف أمام هذا المد الصليبي، سوى الإسلام، وهذه الحقيقة يعرفها الغزاة، ويقول «لورانس براون» في هذه الخصوصية:

«الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي». كما يحذر أيضاً هذا المبشر من اتحاد المسلمين وقوتهم فيقول:

«إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير»[1].

كل هذا التخوف من الإسلام مرده إلى معرفة قوته ومنعته، فهو دين السعادة للبشرية، فإذا طبقت تعاليمه انتشر كانتشار الشمس، فهو من نور الله يهدي للتي هي أقوم، ومن هنا جاء تخوف الاستعمار والصليبيين منه فراحوا يشنون الهجوم عليه ويبشرون ضده ليقفوا سداً أمام انتشاره.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

ويبدو أن السر في تفرق البلاد العربية الإسلامية وتعثرها في خطاها نحو التماسك والوحدة، إنما يكمن في ضعف الوازع الديني، وعدم مكافحة الرواسب التي تخلفت عن الاستعمار والتنصير والتي لا تزال تنخر في الجسم الإسلامي، والقصور في مواجهة التيار الاستعماري، والغزو الصليبي بعزم وإيمان، ومنهج إيجابي فعال.

---

(1) لورانس براون ـ الإسلام والإرسالیات ص44 ـ 48.

(2) سورة التوبة، الآية: 32.

كل هذه العوامل هي التي أتاحت المناخ الملائم لتركيز الاستعمار، وبعثرة القوى الوطنية في معظم البلاد العربية الإسلامية[1].

وبقناعتنا أن الحل الوحيد لمكافحة هذه العوامل، العودة إلى الإسلام والدعوة إليه فهو النظام المثالي، الذي لا يرقى إليه نظام، لهذا نجد «أن الاستعمار يتربص بالعرب والإسلام الدوائر بعمل إيجابي أيضاً، هو تمجيد القيم الغربية المسيحية بمقارنتها بالقيم الإسلامية، والتيئيس من التضامن والتكتل الإسلامي، ليصل بذلك إلى تفتيت وحدة المسلمين إلى الأبد»[2].

وقد أشار «كالهون سيمون» إلى رغبة التنصير في تفريق المسلمين فقال:

«إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التنصير عاملاً مهماً في كسر شوكة هذه الحركات، ذلك التنصير يعمل على إظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها»[3].

ولا شك أن الغربيين والمنصرين يخشون من انتشار الإسلام الذي يدعو بعقيدته إلى الوحدة والأخلاق والقوة والعزّة. وفي الواقع أن الإسلام دعا إلى سلوكية مدنية حضارية لا مثيل لها، فهو لم يترك جانباً أو ناحية من حسن التعامل والسلوكية الأخلاقية إلاَّ وحض عليها، كما أوصى بحقوق الزوجية، وحقوق الأرحام، وحقوق الجيران، وبإكرام الوالدين وطاعتهما. قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿23﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[4].

---

(1) إبراهيم خليل أحمد ـ المستشرقون والمنصرون في العالم العربي والإسلامي ص41.
(2) المرجع السابق، ص98.
(3) التبشير والاستعمار ص22.
(4) سورة الإسراء، الآيتان: 23 و24.

فالتربية الإسلامية التي دعا إليها الإسلام إنما هي مقياس لتقدم الأمم وازدهارها، فالإسلام بأصوله وفروعه، عالج سلوكية الإنسان والمجتمع، فأوصى بالصبر والوفاء، ودفع السيئة بالحسنة، والأخذ بالعفو والأمر بالعرف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[3].

وفي نطاق المجادلة والتحاور أقر الإسلام مبدأ فأوصى بالمجادلة بالتي هي أحسن، كما وحدد الإسلام أصولاً في البيع والشراء، والاقتضاء، والقضاء، حتى في سلوكية التعارف واللقاء والتحية، ودخول المنازل، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[6].

هذا وقد دعا الإسلام إلى التواضع، والسلوك الأخلاقي في العلم والمعرفة، وعدم تدخل المرء فيما لا يعنيه، واجتناب الظن والغيبة، والتجسس، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[7].

---

(1) سورة فصلت، الآية: 34.
(2) سورة الأعراف، الآية: 199.
(3) سورة الفرقان، الآية: 63.
(4) سورة النساء، الآية: 86.
(5) سورة النور، الآية: 61.
(6) سورة البقرة، الآية: 189.
(7) سورة لقمان، الآيتان: 18 و19.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿36﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿37﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[2].

وفي درء الفتنة وسد طريقها، حض على غض البصر، إذ أصل الفتنة النظر وأصل العتاب غض البصر، كا حضَّ على المحافظة على الفروج، دفعاً للفتنة والفساد، ومحافظة على سلامة النسل وأصالته ووضوحه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿30﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ . . .﴾[3].

وفي درء الجهالة والظلم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[4].

وأقر الإسلام مبدأ احترام الغير، ومناداة الإنسان بأحب الأسماء إليه والابتعاد عن التنابز بالألقاب والسخرية، وهذا غاية الأدب الاجتماعي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5].

وقد نظم الإسلام بدعوته كل ما يمس حياة الإنسان بالنسبة لربه وبالنسبة له، وبالنسبة لأسرته، وبالنسبة لمجتمعه وبالنسبة إلى وطنه وأمته، وبالنسبة إلى

---

(1) سورة الإسراء، الآيات: 36 ـ 38.
(2) سورة الحجرات، الآية: 12.
(3) سورة النور، الآيتان: 30 و31.
(4) سورة الحجرات، الآية: 6.
(5) سورة الحجرات، الآية: 11.

المجتمع العالمي، وهكذا فإن التعاليم الإسلامية نموذج غاية في المثالية، وغاية في الواقعية وغاية في الإنسانية، وغاية في العبادة، وغاية في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فيكون الإسلام بهذا عالج حياة الفرد والأسرة والجماعة والأمة، بنظام دقيق يكفل سعادة الفرد، والسعادة البشرية في الدنيا والآخرة، ولم يترك ناحية من نواحي المجتمع إلا وعالجها، ورسم طريق الخير والصلاح لها، فما من خير إلا ودعا إليه وحض على اتباعه، وما من شر أو فساد أو انحراف إلا ونهى عنه، وحذر من الوقوع فيه، كل هذا من خلال أسس تنظيمية لواقعية الحياة المادية الجسدية والحياة الروحية، فنظر إلى الإنسان جسداً وروحاً معاً، كإنسان مستقل قائم بشخصه على وجه الانفراد، وإنسان في المجتمع متصل مع بني جنسه، من خلال هذه النظرة حدد الحدود والحقوق والواجبات على صعيد الفرد، وصعيد المجتمع.

هذه دعوة الله إلى شريعته بأسس علمية، ومبادئ إنسانية، وهذه الدعوة فرض كفاية، لا تدع المسلم أن يقعد عن نصرة الله، ولا يدعو إلى إحلال الخير واقتلاع السوء، لأن هذه الدعوة واجبة على كل مسلم ومسلمة في حدود استطاعته باعتباره مسلماً مؤمناً بالله ورسوله. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، على من تقع هذه الدعوة؟ وقد سبق أن بينا أنها من معاني فرض الكفاية على القادر المؤهل لها من المسلمين بدليل الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾[2].

وهل معنى هذا أن هذه الدعوة موجهة إلى فئة خاصة من المؤمنين أي أنها تخص العلماء فقط، أم أن التكليف موجه إلى المؤمنين، فإن قام به أحد أو فئة سقط عن الآخرين؟

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

(2) سورة آل عمران، الآية: 104.

على أن البعض يرى أن التكليف مختص بالعلماء، لأن العلم شرط أساسي من جملة شروط الأمر والنهي، يقول الرازي بهذا الخصوص:

«إن هذا التكليف مختص به العلماء، لأن الدعوة إلى الخير بالعلم وبالمعروف والنهي عن المنكر، نثبت أن هذا التكليف موجه إلى العلماء لا إلى الجهال والعمال بعض الأمة»[1].

ولكن العلم بنظرنا ليس شيئاً واحداً لا يتجزأ ولا يتبعض، فقد يكون هناك من يعلم بأمور ويجهل أخرى، فهو إذن عالم بالأولى جاهل في الأمور الأخرى، وبهذا يجب على من علم أن يقوم بالدعوة لتوفر شرط الوجوب فيه لصحة الدعوة، فالمسلم العالم بالشيء يستوجب عليه إذن بقدر علمه، أن يدعو إلى ما علم به من الدعوة إلى الله، لا سيما وأن الإسلام ليس فيه رجال يمتهنون الدين، إذ لا كهنوتية ولا رهبانية في الإسلام، فالعلم ليس مقصوراً على رجال دين مختصين، بل هو مطلق عام وارد لكل إنسان، فكل مسلم عالم بأمور دينه يصح أن يدعو إليها، سواء كان مختصاً على وجه القصر في علوم الدين، أو لم يكن كذلك، ولكنه عارف بالكلية أو بالجزئية التي يدعو إليها، ومع ذلك يثير بعض المتفرّضين إلى أن الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من اختصاص الرسل، ويتذرعون بدليل الآية لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[2].

لا شك أن هذا التذرع فيه مغالطة، لأن هذه الآية لا تفيد عدم الدعوة، ولا تقتضي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ المراد بها توجيه المسلمين إلى إلزام المرء بنفسه بما أمر الله سبحانه وتعالى، وما نهانا عنه من الأمر، فلا يضركم ضلال الغير إذا اهتديتم أو كنتم مهتدين، ولا شك أن هذا الاهتداء يتم بطاعة الله سبحانه وتعالى، وأداء

(1) الرازي ـ تفسير الرازي ج7، ص177.

(2) سورة المائدة، الآية: 105.

الواجبات التي أمر بها والانتهاء عما نهى عنه، ومضمون هذه الآية تكشف عن مزايا هامة، في الإيمان والاطمئنان إليه، وإعراض الإنسان عما لا يهتدي، وقد أشار ابن تيمية إلى هذه الفوائد العديدة وهي:

1 ـ أن لا يخاف المؤمن الكفار والمنافقين، فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً.

2 ـ أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم، فإن معاصيهم لا تغيره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1].

3 ـ أن لا يركن إليهم ويمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات. لقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألم عليهم، ومنهم إما راغباً وإما راهباً.

4 ـ أن لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[3] كما قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6]. فإن كثيراً من

---

(1) سورة النحل، الآية: 127.
(2) سورة الحجر، الآية: 88.
(3) سورة المائدة، الآية: 105.
(4) سورة المائدة، الآية: 8.
(5) سورة البقرة، الآية: 190.
(6) سورة البقرة، الآية: 193.

الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل أو بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، سواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين.

5 ـ أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

على أنه يجب أن لا يغرب عن البال، أنه يتم الاهتداء، إذا أطيع الله، بمعنى أن هذا لا يعني أيضاً ترك الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فالمعاصي لا يسكت عنها، ويجب مكافحتها فلا يسع المسلم أن يقعد عن الدعوة إلى الله، وهو يرى انهيار القيم الإسلامية وانتشار الفساد، والابتعاد عن الحكم بما أنزل الله. ويردد قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1]. فيكون بذلك قد أغلق عليه فهم الآية وأخرج الأحكام عن علتها، لا سيما إذا كان الدعاة من القادة والعلماء، فهؤلاء يجب أن يأخذوا بالعزيمة والقوة لمحاربة المنكر، والدعوة إلى الحق، وأن يصدعوا بما يؤمرون، ولو لحقهم الأذى والضرر من جراء ذلك، إذ هؤلاء أصحاب عقيدة عليهم أن يقفوا دونها ولو نالهم الأذى حتى ولو لحقهم الموت، ففهم الآية إذن على غير حقيقتها، يدعو إلى التقاعس عن الجهاد بعلة المشقة والبلاء، تحت التذرع بتفسير الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بغير مدلولها.

وهكذا نخلص إلى القول أن الأمة الإسلامية هي أمة الإيمان وأن الدعوة إليه لا بد من جهد وإرشاد بالحسنى والإناة بكل وسيلة مشروعة وممكنة، وعلى الأمة الإسلامية أن تتضامن في الدعوة إلى الله، وتتواصى بها فهي دعوة الوحدة والقوة، وهي السبيل لاسترجاع منعتها وعزتها، ومركزها بين الأمم، فالأمة

---

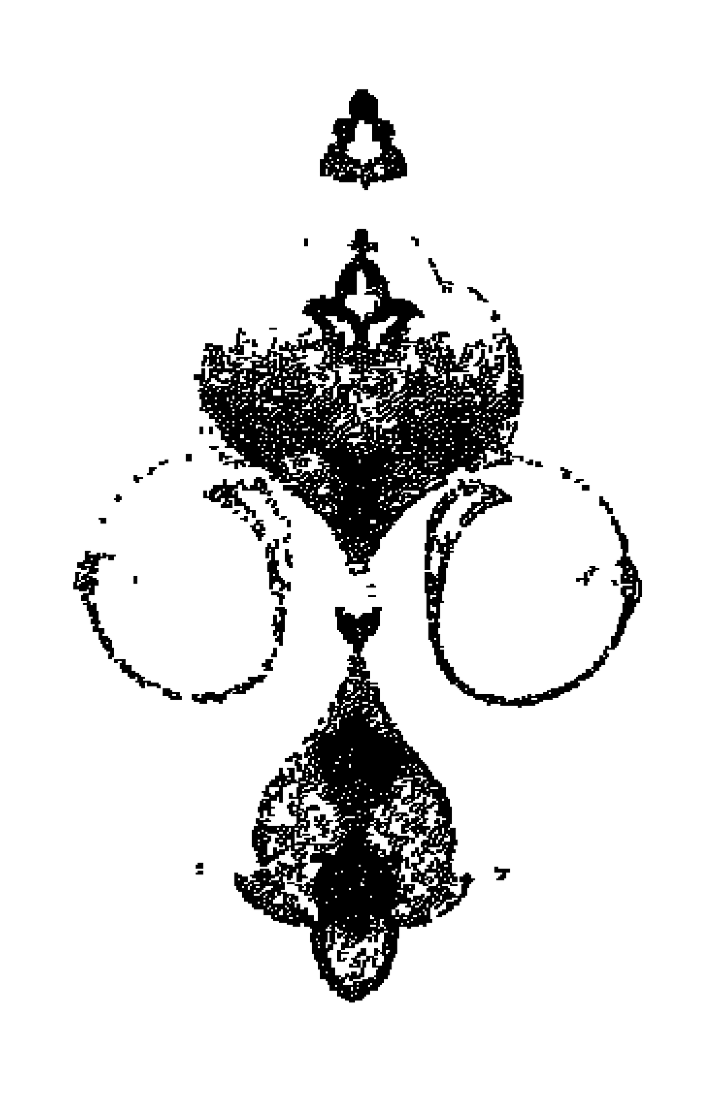
(1) سورة المائدة، الآية: 105.

المسلمة مسؤولة أمام الله، وهي محاسبة عن التقصير في الدعوة إلى الإيمان بالله وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لنشر الإسلام في كافة أنحاء الأرض، وتحكيم شريعة القرآن وهي خير شريعة أخرجت للناس.

هذا وقد عرضنا في هذا الفصل، مفهوم الدعوة وغايتها، كمدخل تبعاً لما يقتضيه بحث العقيدة من أسس وخصائص، ليكون القارئ على علم بمفهوم هذه الدعوة، التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتنفذ إلى القلوب، فتطمئن فتبصر الخير، وتعمل به، وتركن إليه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 104.



البَاب الثاني

العقيــدة

الفصل الأول

مصدر العقيدة

القرآن هو المصدر الأساسي والرئيسي لعقائد الدين وللأحكام الواردة في أصول الدين وشرائعه، ومن هذا المنطلق، فإن العقيدة الأولى، هي الإيمان بالقرآن بأنه منزل من عند الله، وأنه معجز للبشر لا يملكون الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

هذا القرآن قد حوى في غير العقائد الأصلية الأساسية ما جعل أصحاب الرأي والعلماء فيما بعد وفاة الرسول ﷺ، يذهبون مذاهب مختلفة، فيما لم يكن من آياته نص في معنى واحد، ومن هنا اتسعت الآراء واختلفت المفاهيم في النصوص التي تحتمل للآراء، تبعاً للدلالة التي تفهم من قبل كل واحد من النص القرآني، معززة بما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو إقرار، أو تبعاً للاجتهاد أو القياس، أو المصلحة التي تعتبر من القواعد العامة لفهم روح الدين. ولا شك أن هذه الآراء لم تكن ملزمة، فهي اجتهادات فردية تترك للناس الخيار في الإيمان بها أو النظر في مفاهيمها.

أما القسم الثاني من القرآن فهي عقائد أصلية يجب التسليم بها، ولا تقبل

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.

أي نقاش أو اجتهاد فيها، وهي ملزمة باعتبارها من أركان الدين، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره شره.

وإلى جانب هذه العقائد، وجدت أصول الشريعة، وهي الصلاة، والزكاة، وحرمة النفس، والعرض، والمال.

فالنصوص التي وردت في العقائد الأصلية وأصول شريعة الدين الإسلامي، إنما هي نصوص واضحة يقينية، لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلاً، ولئن اختلفت الآراء في بعض المسائل، فإن هذه لم تتجاوز الفروع الملحقة بالعقائد الأصلية، ولا شك أن هذه الاجتهادات في الفروع، إن دلت على شيء، إنما تدل على أن الإسلام دين يسر، يعطي للفكر حريته تبعاً لمنظور الفهم عند الفقهاء في هذه الفروع، مما أدى إلى ظهور المذاهب المختلفة تيسيراً على عباد الله. وهذا بالطبع يتفق مع منهج العقل البشري في التطور تبعاً لكل زمان ومكان، ولمصلحة صلاح البشرية بما يتفق ورقي العقل.

فالقرآن الكريم إذن، هو مصدر الدين الإسلامي، فهو أصل العقيدة والشريعة، ولا يمكن لواحدة أن تقوم دون الأخرى، بل هما متلازمتان وقد حض الله على الأخذ بهما. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿107﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2].

فالعقيدة والشريعة تكوّنان حقيقة الإسلام، وهذه الحقيقة يجب أن تكون قائمة وثابتة في عقل الإنسان وقلبه، عاملاً بها في حياته وسلوكه، وإذا كان الأمر كذلك فما هو مدلول هذه العقيدة والشريعة، وما هو مدى ارتباط كل واحدة بالأخرى؟

(1) سورة الكهف، الآيتان: 107 و108.

(2) سورة الكهف، الآية: 110.

أولاً ـ في العقيدة:

العقيدة مشتقة من اعتقد، واعتقد بالشيء صدقه وتدين به، وعقد قلبه وضميره، وجمع العقيدة عقائد، وتعني بالدلالة على هذا المعنى المعتقد والاعتقاد. وقد تكون لفظة العقيدة أصلاً مشتقة من العقد، فيقال عقد الشيء أي ربطه وأحكمه، والعقد في المفهوم القانوني يفيد الإحكام الناتج عن اتجاه إرادتين متقابلتين ومتوافقتين على معنى قانوني واحد[1].

والاعتقاد إذن هو إحكام القلب والضمير على معنى معين وهو التصديق به والثبوت عليه.

أما العقيدة بمفهومها العام، فهي التصديق بقضية ما، وثبوتها لديه بالبرهنة والاستدلال، سواء كانت علمية، أو فلسفية في الطبيعة، حسِّية أو فيما وراءها، عقلية أو نقلية، بصرف النظر عن عوامل الاستدلال عليها يقينية حسية، أو وهمية أو فطرية، أو غير ذلك من العوامل، وقد عرّف (غوستاف لوبون) العقيدة فقال: «العقيدة هي إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري، يكره الإنسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل»[2].

ولا شك أن هذا التعريف استبعد فيه عامل البرهنة والاستدلال، لعل سبب ذلك عند (لوبون) إرجاعه الآراء والمعتقدات إلى عاملين أساسيين، وهما الوراثة والبيئة، ويبدو أن مثل هذه العقيدة لا يمكن أن تنطبق على الواعي، لأن العقيدة الناجمة عن الوراثة والبيئة، إذا أعمل فيها المعتقد الفكر، كثيراً ما يرجع عنها بعد التعقل والتفكير، فما كان مؤمناً به يغدو باطلاً أو العكس، فإقامة العقيدة على اللاشعور، إنما أسند بذلك العقيدة إلى مصادر اللاشعور وهي الدوافع الفطرية، والنزوات الغريزية التي ترجع إلى الوراثة.

فالعقيدة إذن برأي (لوبون) تستقر في النفس، عن سبب غير استدلالي ـ

---

(1) عبد السلام التونجي ـ مصادر الالتزام في القانون المدني الليبي 1976 ـ يراجع العقد.

(2) غوستاف لوبون ـ الآراء والمعتقدات ص90.

من أوهام أو غيرها ـ حال غفلة النفس عن تسبيبه، وهذا الاعتقاد أو الإيمان يحدث بدون إرادة واختيار، إنما هو متحقق بالوراثة أو البيئة، فمصدر العقيدة لدى (لوبون) إذن غير استدلالي، أي هو الإيمان الناشئ عن حالة الغفلة عن مصدره. أما الإيمان الحاصل عن الدليل لحاله، والالتفات إلى ذلك الدليل وارتباط المعتقد فيه، فهو في نظره إنما هو علم، ولا شك أن هذا المنطق غير مقبول ترفضه مفاهيم اللغة أصلاً.

وعلى هذا نرى أن الاعتقاد هو التصديق بقضية ما، فالاعتقاد هو التصديق والثبوت بالوعي والاستدلال بشكل جازم يقيني، فاعتقادي بوجود الله جل جلاله، هو التصديق والجزم بوجوده، إنه إله واحد موجود في كل الوجود ليس كمثله شيء، وذلك بالدليل والبرهان وعن إرادة واختيار[1].

هذا ويجب أن لا يغرب عن البال أن البحث في العقيدة هو بحث ليس مجرداً لذاته، إنما يستهدف معرفة الإنسان لربه، والغاية من خلق هذا الكون وكيفية الاتصال بالله، والطاعة، والعبادة له، لتكون أعماله لوجهه تعالى، فما كان لله فهو المتصل وما كان لغير الله فهو المنفصل، كل هذا إذن في سبيل رسم السلوك الواجب الاتباع، ليحقق الإنسان لنفسه الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

فالعقيدة الإسلامية تستقطب الطاقات للعمل في سبيل الله، ومن كان عمله لهذا الهدف لا يتزحزح عن عقيدته، ويدعو إلى الله بكل عزم وتصميم نتيجة اعتقاده الثابت ويقينه المطلق بالإيمان به والدعوة إليه، والمثل الأعلى لثبوت العقيدة ما روي في شأن محمد ﷺ مع عمه أبو طالب، بشأن قريش الذين قالوا له: «إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل. ويقول، ويقول. . فلو بعثت إليه فنهيته، فجاء رسول الله ﷺ، وهو اليتيم الذي ليس لديه من قوة، سوى قوة

---

(1) هذا الموضوع يدخل في شمول علم أصول الدين، وهو يشتمل على بيان الآراء والمعتقدات، التي صرح بها رسول الله ﷺ وإثباتها بالأدلة العقلية ونصرتها وتزييف كل ما خالفها. فريد وجدي ـ دائرة المعارف. ج6 ص621 تحت عنوان أصول الدين.

العقيدة ونصرة عمه الذي بعث إليه، وقد أجمعت قريش على قتله إن لم يرتد عن دعوته فقال:

يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا. . فابق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ، أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلّمه، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ:

«يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر باكياً، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: اقبل يا ابن أخي فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[1].

فالعقيدة التي دعا إليها الرسول ﷺ هي الإيمان بالله، وبمحمد رسول الله إيماناً لا يرقى إليه الشك، وهذه الدعوة إلى الله هي دعوة كل الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد رسول الله ﷺ. ونصوص القرآن في هذا الشأن واضحة، كما أجمع المسلمون على قيام هذه الدعوة منذ ابتدائها، وقد كانت دعوة نظرية في المرحلة الأولى.

ثانياً ـ الشريعة:

الشريعة هي مجموعة القواعد والنظم التي شرعها الله في كتابه ليتبعها الإنسان، ويعمل بها وليحدد بها سلوكه وعلاقاته مع ربه ومع أخيه المسلم، وأخيه الإنسان، مع مجتمعه وعلاقته بالحياة، كل هذا بقصد تحقيق السعادة له وللمجتمع. فقيام المرء بالعبادة من صلاة، وصوم، إنما هي علاقة مع ربه، وحسن التعامل والتعاون والتكافل والتضامن والتبادل بالمحبة، تبعاً لمبدأ عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، إنما هو سلوك لتحديد العلاقة مع المسلم، أو

(1) ابن الأثير، تاريخ الكامل، ج2، ص24.

مع أخيه الإنسان، وتكوين الأسرة واتباع الميراث ودفع الزكاة والصدقات والتعاون على البر والتقوى، إنما هي علاقة مع المجتمع، والتفكير في خلق السموات والأرض والكائنات وإعمال النظر فيها، والقيام بالتتبع والاستقصاء بحثاً ودراسة للاستفادة من طاقاتها، إنما تهدف لرقي المجتمع وتطويره، بما ينعكس على رقي الإنسان، والعمل في الحياة، والابتعاد عن الشبهات والاستمتاع بلذائذ الدنيا دون إفراط أو تفريط أو بذخ أو تقتير، في نطاق الحلال، إنما هي متع خلقت لخير الإنسان وسعادته.

ثالثاً ــ مدى ارتباط العقيدة بالشريعة:

العقيدة والشريعة صنوان لا يفترقان، ولا تقوم واحدة دون الأخرى، فالعقيدة بمثابة الروح والشريعة بمثابة الجسد، فلا يقوم جسد بأي عمل أو حياة، إذا فقدت منه الروح، وعلى هذا الأساس، فالعقيدة حيث تكون قائمة فالجوارح تتحرك بمفهوم العقيدة ومدلولها، ومتطلباتها، وتلبي لانفعال القلب بالعقيدة، وعلى هذا فلا يمكن قيام العقيدة دون الأخذ بأحكام الشريعة، كما أنه لا قيمة للأخذ بأحكام الشريعة، إذا أهدرت أو انعدمت العقيدة، بمعنى أنه لا يكون الإسلام قائماً إلا باقتران العقيدة مع أحكام الشريعة، وهكذا، فإذا كانت العقيدة هي الإيمان، فإن الشريعة هي العمل، ولا يسوغ حلول واحدة محل أخرى، فإذا تخلفت واحدة تخلف حكم الإسلام. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

وهكذا نجد أن الإسلام لا يتم إلا بالعقيدة والشريعة معاً، ولقيامه عند المسلم يتطلب وجودهما معاً، وهذا الحكم مطلق يشمل جميع المسلمين على اختلاف جنسهم أو عرقهم أو طبقتهم، أو مركزهم الاجتماعي أو المالي، أو السياسي، دون أن يكون لهذه الصفات أي تأثير، بمعنى أنه يستوي في قيام العقيدة والشريعة والتمسك بها، الذكر، والأنثى، والأبيض، والأسود،

---

(1) سورة العصر، الآيات: 1 ــ 3.

والرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، والضعيف والقوي، والحاكم والمحكوم، فالمنظور عند الله الواحد، هو قيام العقيدة والشريعة عند الإنسان أي قيام الإيمان والعمل معاً، وهو المعيار الذي ينال الإنسان به الحظوة عند الله تبعاً لدرجات الإيمان والتقوى، والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[3].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[4].

فارتباط العقيدة والشريعة قائم في التطبيق على الناس على مبدأ المساواة في منظور الإيمان والعمل، ويترتب على ذلك المساواة في المسؤولية بمعنى أن التكليف بالعقيدة والعمل، تكليف يقوم على مبدأ تفريد الثواب والعقاب للإنسان في الحسنة والسيئة، فمن يؤمن يثاب على إيمانه، ومن يكفر يعاقب على كفره من أنثى أو ذكر، أو والد أو ولد. ولا يثاب أحد عن أحد، فكل إنسان بما كسب رهين من خير أو شر، فلا تداخل ولا تضامن في المسؤولية، فلا ينفع صلاح الرجل امرأته، كما لا ينفع صلاحها زوجها. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾[5].

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.
(2) سورة فصلت، الآية: 44.
(3) سورة النساء، الآية: 123.
(4) سورة النساء، الآية: 124.
(5) سورة الإسراء، الآية: 13.

﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[3].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.
(2) سورة لقمان، الآية: 33.
(3) سورة التحريم، الآية: 10.

الفصل الثاني

عوامل وأدوات تكوين العقيدة

لا شك أن العقيدة عند الإنسان المفكر تتكون من معطيات قائمة عنده، سواء، كانت هذه المعطيات استدلالية، أو تجريبية، أو عقلية، أو وهمية، وتكون العقيدة نتيجة لهذه المعطيات ثابتة في ذهنه، تصديقاً على وجه اليقين والجزم، فكل صاحب عقيدة، لديه قناعة ثابتة في قضية ما، على اختلاف طبيعتها علمية أو فلسفية أو طبيعية أو ما وراءها، عقلية أو نقلية، فصاحب العقيدة على هذا الأساس هو إنسان آمن بقضية وثبتت في عقله وقلبه، وأضحى من الصعب نقضها، إلا بقضية أخرى أقوى منها، من حيث الاستدلال أو القناعة، كما هو الشأن في العقيدة الإسلامية، المتضمنة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره فهي عقيدة ثابتة، هذه العقيدة قد حلت محل العقائد الوثنية، فهي عقيدة الحق التي زهق بها الباطل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ والتي بشر بها محمد ﷺ[1].

فالبحث في المعتقدات الإسلامية ليس هو بحث مجرد للترف الفكري، بل هو بحث يستهدف المصلحة الإنسانية والمصلحة الشخصية للإنسان، حيث

---

(1) البحث في العقائد الإسلامية وإثباتها بالدليل العقلي ونصرتها وتزييف كل ما خالفها وهذه المواضيع هو ما يقوم عليها علم أصول الدين (محمد فريد وجدي دائرة المعارف ج6 ص621).

يعلم حقيقة هذا الكون ومبدأ الإنسانية فيها، وكيف خلقت، ومن خلقها؟ وما هي الغاية من خلقها؟ وما هي علاقة الإنسان بالخلق والخالق؟

هذا التتبع بالاستقصاء يهدف إلى معرفة السبيل الصحيح في السلوك، كي يحقق عن طريق هذه المعرفة السعادة والإطمئنان للنفس البشرية في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن حقيقة المعرفة في هذه العقائد خطها الرسول الأعظم محمدﷺ بأمر من ربه، من هذا المنطلق كان لعلم أصول الدين الشأن العظيم بين باقي العلوم الإنسانية.

فالإنسان إذن بالبحث عن المعتقد، إنما يبحث عن الحقيقة ليعرفها ويعمل بموجبها، ويدعو غيره إلى معرفتها، لهذا نجد أن كل إنسان معتقد أو ذو عقيدة، لا بد وأن يكون متلمساً العناصر التي كونت معتقده، وجعلته صاحب عقيدة.

هذه العقيدة، لا بد وأن يكون مردها إلى عوامل كونتها. وقد تختلف هذه العوامل، وبصرف النظر عن اختلاف العلماء في أسس تكوين العقائد، فبعضهم يراها داخلية وهي:

1 ـ الخلق سواء كانت موروثة ومكتسبة.

2 ـ المثل الأعلى.

3 ـ الحاجات الضرورية للإنسان.

4 ـ المنفعة المحققة من شيء ما.

5 ـ الحرص على المنفعة.

إلى جانب هذه العوامل الداخلية هناك العوامل الخارجية في تكوين العقيدة حسب رأي الآخرين وهي:

1 ـ غموض الأشياء والحاجة إلى كشف ظواهر هذا الغموض.

2 ـ التلقين، وهو يلعب دوراً هاماً في تكوين العقيدة لما له من تأثير على النفس، كالكتب والدعاية.

3 ـ الانطباعات الأولى في الذهن لأي ظاهرة أو حدث، حيث يؤثر في النفس بعد أن كان مجهولاً تجاه الإنسان.

4 ـ الأسلوب البياني من ألفاظ وصيغ منتقاة، لما لها من تأثير في الاقناع.

5 ـ الصورة الحسية التي تحدث تصورات، ذهنية، من ألفاظ، وتعابير، أو حركات، أو رسوم فهذه كلها تلعب دوراً هاماً في الناس.

6 ـ الأوهام التي تعتري الإنسان وترافقه منذ طفولته إلى موته، تحمله على السير باتجاه معين دون أن يقدر عواقب هذه الأوهام.

7 ـ الضرورة بأن تتحكم في الظروف وتلجئ إلى رأي معين كالقناعة بشيء ما، كما في حالة الاقتناع في حالة الحرب، بتحقق الخسارة ورجحانها فيحمل هذا على طلب المصالحة.

على أن هذه العوامل أو الدوافع المختلفة لتكوين قناعة ما في عقيدة ما، لا تحقق نتيجة واحدة عند كل إنسان، فقد يرى شخص تبعاً لتحقيق عنصر المنفعة وجوب قبول المصالحة في الحرب عند رجحان احتمال خسارة الحرب، بينما يجد شخص آخر أن المنفعة متحققة في الاستمرار في الحرب[1].

يتضح لنا من هذه العناصر أن (لوبون) قد أبعد عنصر الإرادة، والاختيار في العقيدة من بين هذه العوامل، ولعل مرد ذلك يرجع إلى أن هذه العوامل التي عرضها لا تخرج عن عامل الوراثة والبيئة كما مر معنا سابقاً.

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه (لوبون) غير وارد، فكم من أشخاص مسيحيين غيروا عقيدتهم، واعتنقوا الدين الإسلامي نتيجة إعمال فكرهم

---

(1) غوستاف لوبون ـ الأراء والمعتقدات نقلاً عن محمد بن العري ـ لمحات في وسائل التربية وغاياتها ص 86، وما بعدها.

وعقلهم، وهذا بالطبع يدعونا إلى القول: أن الأصل في العقيدة أن تكون قائمة على العقل والبرهان، لا على الوراثة والبيئة، كوسيلة أو طريق للإيمان بعقيدة ما، ومع هذا نجد أن العقيدة عند كثير من الباحثين تقوم على الإرادة، لأن العقيدة أثر من آثار التفكير، وبما أن الإنسان حر في تفكيره، فهو حر تبعاً لإرادته أن يخلص إلى العقيدة التي يقنع بها بعد إعمال فكره، وأنه ليس لأي قوة علاقة في إرادة الإنسان. وهؤلاء هم من أنصار الإرادة الحرة، أو يسمون بأصحاب الاختيار.

وهناك من يرى عكس ذلك، وهم (الجبريون) الذين يردون كل شيء إلى الله سبحانه وتعالى، فيرون أن أفعال الإنسان مقدرة عليه منذ الأزل من القدر أو من الله.

وهناك من ذهب إلى رأي وسط بين هؤلاء، وأنصار هذا المذهب هم الوسطيون، الذين يرون، أن هناك من الأعمال والأفعال ما تصدر عن الإنسان دون إرادته، وهو مكره عليها، ولا شأن لأعمال الإرادة فيها، كما أن هناك من الأفعال ما تصدر عن الإنسان وهو مختار في فعلها، إن شاء فعلها أو امتنع، فالموت مثلاً أمر مقدر على الإنسان، وهو أجل مكتوب من قبل الله سبحانه وتعالى على كل إنسان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

بينما لو تعاطى الإنسان الأفعال المحرمة، فقد فعلها بإرادته واختياره، ولا يمكن القول عند أصحاب مذهب الاختيار أن الفعل المحرم كشرب الخمر، أو الانتحار، مقدر عليه ففعل الانتحار مثلاً عمل يتم بإرادة المنتحر، وأن الموت نتيجة طبيعية لهذا الفعل، تبعاً للقواعد الطبيعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، فسقوط جسم الإنسان من مكان مرتفع بفعل الجاذبية، وقابلية الجسم للتحطيم، وتوقف القلب أو موت الدماغ، كل هذه نتائج طبيعية لفعل

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 34.

السقوط، وبالتالي فقد تم السقوط بإرادة الإنسان، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى بتزويد الإنسان بالإرادة ترك له أمر الاختيار في أفعاله، فاختياره لعقيدة ما، مرده إلى الإرادة بفعل العقل والتفكير، وهو أمر يقوم على الاختيار المحض. قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وهذا بالطبع أمر يتفق مع المنطق والعقل، إذ لو كانت جميع أعمالنا وأفعالنا مقدرة علينا بما فيها الإيمان أو الكفر لتعطلت القيم من حيث فعاليتها وأثرها، فلا يثاب المحسن، ولا يعاقب المسيء، لأن الكل ليس بفعل الإنسان الاختياري، إنما مكره عليه، وهذا غير وارد، إذ لو صح هذا لكنا كالآلات نتحرك بفعل غيرنا، كذلك لو كنا أحراراً بكافة أفعالنا لكنا منفردين في هذا الكون، ولا توجد أي قوة تداخل في أعمالنا، وهذا يؤدي إلى إنكار فكرة وجود الله، وسلطان القدر إذاكان ليس له أي تدخل، وإذا كان الأمر كذلك، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى، إما أنه غير موجود، أو موجود وهو عاجز، أو لا يتدخل ومعاذ الله أن يكون كذلك، لأن هذه الفرضيات تتنافى مع ذات الله وصفاته عز شأنه.

فالعقيدة إذن على هذا الأساس تقوم على إرادة الاختيار، فبإرادتنا نختار عقيدتنا، بإعمال الفكر بالأدلة والأثر من كتاب الله وسنة رسوله.

هذا التفكير بالعقل هو الذي يقودنا إلى معرفة الله، ومعرفة الله ضرب من ضروب التعبد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[3].

(1) سورة الكهف، الآية: 29.
(2) سورة آل عمران، الآية: 191.
(3) سورة الروم، الآية: 8.

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وعلى هذا الأساس نستطيع القول: أن الإنسان بفعل إرادته وعقله يستطيع أن يتبين الحق من الباطل، بالعلم والمعرفة، فيختار تبعاً للعوامل الأساسية في العقيدة، اختيار ما يتفق مع المعايير والمقاييس التي عمل بها، للوصول إلى العقيدة التي يقررها ويختارها، وإذا لم يكن الأمر كذلك، وكان الإنسان مجبراً على اتباع عقيدة ما، فلو كشف بعقله وتفكيره بطلان هذه العقيدة المؤمن بها، لما استطاع أن يتحرر منها إلى العقيدة الصحيحة طالما أنه مجبر في الأصل على العقيدة المؤمن بها دون إرادته واختياره، وهذا بالطبع لا يقبله أي منطق أو عقل، كما أننا نرى من ناحية ثانية أن وجود الإرادة والأخذ بعنصر الاختيار في العقيدة، يدفع الإنسان دائماً إلى البحث عن العنصر الصحيح، للاهتداء للعقيدة الصحيحة، طالما أن مبدأ حرية الاختيار هو المذهب المتخذ سبيلاً في البحث، هذا وإذا أخذنا بمذهب الإرادة الحرة، فالسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا نبحث عن الاعتقاد؟، وبماذا نبحث عنه؟ بمعنى ما هي الأسس الدافعة للبحث عن العقيدة وما هي أدوات تكوينها؟

مما لا شك فيه أن البشر على اختلاف مذاهبهم وأعراقهم وأجناسهم ومشاربهم يؤمنون بعقيدة ما، بما فيهم الملحدون، فهو أصحاب عقيدة، وكذا الشاكون، واللاأدريون، هم أيضاً أصحاب عقيدة بقضية تصديقية، فالإيمان بالله، والإيمان بالأنبياء أو الإيمان بالملائكة، أو الإيمان بمذهب أو حزب، كلها قضايا تصديقية، لها أثرها البعيد في سلوك الإنسان في حياته.

وإذا كان كل إنسان لا بد له من عقيدة فلا بد أن تكوين هذه العقائد عند الناس مختلفة من حيث مصدر التكوين، من هذا المنطلق اختلف الفلاسفة في

---

(1) سورة فصلت، الآية: 53.

عوامل تكوين العقيدة فبعضهم ردها إلى المنفعة، وهم أصحاب مذهب الذرائع أو (البرجماتي)[1].

أولاً ـ عامل المنفعة:

أصحاب هذا المذهب يرون الفكرة تقدر بمقدار ما لها من أثر على مسلك الحياة، وبهذا يتقرر أن التجربة كعامل أساسي في الاثبات لفكرة ما، وإنكارها، وعلى هذا خلصوا إلى أن ما لا يثبت بالتجربة، ليس له أثر على السلوك الإنساني في الحياة، كالاعتقاد بالنار أنها محرقة. وبهذا أضحت أي فكرة ترمي إلى اعتقاد ما، بنظر أصحاب مذهب الذرائع، لا يمكن أن تكون صادقة وصحيحة، ما لم تكن من خلال الحكم على صحتها تحقق نتائج عملية في حياتنا، وما ليس كذلك فهي أفكار أو اعتقادات باطلة، وإلى هذا أشار (وليم جيمس) بقوله: «إن الأفكار تصبح صادقة بمقدار ما تساعدنا في الوصول إلى علاقات مرضية مع أجزاء خبرتنا الأولى»، كما يقرر الفيلسوف (ديوي) هذا المفهوم بقوله: «إن الفكر والعقيدة الصادقة هي ما تفيد» وإلى هذا أيضاً ذهب الفيلسوف «شلر» فقال: «إن الصور الذهنية التي نستعملها والأساليب التي نختارها والمعتقدات التي نؤمن بها يمكن أن تجد تبريرها الوحيد فيما تنفع به لتحقيق الغايات الإنسانية».

وهكذا نجد عند هؤلاء، وفقاً لمذهب الذرائع المذكور، أن المعيار الأساسي للحكم على قضية ما بأنها صادقة وتصلح للاعتقاد والإيمان بها هو معيار المنفعة نفسه، وهو المقياس الذي يفرق بين الحق والباطل، وهذه النتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق التجربة العملية التي بها نتحقق من مقدار نفعها، وهذا في الواقع هو الدليل على صحة الاعتقاد، عند أصحاب هذا

---

(1) البرجماتية أضحت مذهباً مستقلاً بفضل الفيلسوف الأميركي وليم جيمس (1824 ـ 1910) والفيلسوف البريطاني فرديناند كانبج سكوت شلر (1864 ـ 1937) والفيلسوف الأميركي جون ديوي (1859 ـ 1952).

المذهب، على أن معيار المنفعة لا يمكن أن يكون دائماً وأبدياً، فهو يختلف تبعاً للظروف والملابسات، ومع ذلك فقد يكون الرأي والعقيدة باطلة، أو تقوم على أوهام، فهي جديرة بالقبول طالما تحقق تصديقها، والاعتقاد بها أنها نافعة. وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الاسباني جور سانتيانا (1863 ـ 1952) إذ قال: «إنني اصدق المذهب الكاثوليكي ولو أنني أعلم أنه كاذب».

ولعل ما قرره هذا الفيلسوف بتصديق هذا المذهب، أنه نفسه ترتاح إليه وتطمئن له، على الرغم من قيام الدليل عنده على بطلان هذه العقيدة وكذبها[1].

فمذهب الذرائع الذي يقوم على المنفعة، وإن كان يقوم على حرية الإرادة، كما أنه، وإن كان معظم الناس يسلكون في حياتهم العملية السلوك الذي يحقق لهم منفعتهم، وبهذا فهم ذرائعيون سواء بشعورهم أو باللاشعور، وهم بهذا الاتجاه يأخذون بمعتقد ما عندما يعلمون، أن هذا المعتقد يحقق لهم غرضاً أو مصلحة ما. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[2].

❖ تقدير مذهب الذرائع:

1 ـ الواقع أن معظم الناس يضعون المعيار الأساسي لمعتقداتهم وآرائهم هو كل ما يحقق مصالحهم، وبهذا الدافع يختارون عقيدتهم، طالما أنها تحقق لهم أغراضهم الخاصة، وبهذا أضحت المفاهيم معكوسة، فالسلوك المعيشي والمصالح الخاصة، هي التي توجه الأفكار، وهذا بالطبع منذر بانهيار القيم، إذ الأصل أن الأفكار هي التي تحدد السلوك والمعتقد لا العكس..

2 ـ إن المنفعة لا يمكن أن تكون هي المقياس الذي تقوم عليه العقيدة، ذلك أن مذهب الذرائع يأخذ بحرية الإرادة، فإن الأخذ بعقيدة ما اعتماداً على

(1) راجع موسوعة العقاد الإسلامية بيروت V1270 ج1 الموسوعة الفلسفية المختصرة جلال القشيري عبد الرشيد الصادق لجنة ترجمة فؤاد كامل. مصر 1963.

(2) سورة الإسراء، الآية: 67.

الإرادة والاختيار يتم مع ذلك عن طريق الاستدلال العقلي، وهذا الاستدلال العقلي يعتمد على حجية القياس معياراً صادقاً للوصول إلى النتيجة، وأن هذه النتيجة تعتبر صادقة ويقينية سواء حققت منفعة أم لا، وليس لمن خلص إلى اليقين بالاستدلال، أي اختيار أو حرية بعدم الإيمان بهذه النتيجة، طالما تمت عن طريق الاستدلال العقلي، مثال ذلك: «أن علماء المسلمين العقليين يعتبرون القياس حجة صادقة وملزمة، فعندما يناقش أحدهم أزلية العالم أو حدوثه يضع مقدمة، وهي أن العالم متغير، فإذا كان العالم متغير فهو حادث، تبعاً لمقولة «إن كل متغير حادث»، والعالم متغير، إذن العالم حادث، هذه النتيجة يقينية عنده، ولا يمكن العدول عنها شاء أو لم يشأ».

3 ـ اعتماد مذهب الذرائع معيار المنفعة أساساً للعقيدة، يرمي إلى تقديم المصالح الخاصة الفردية، على المصالح العامة الجماعية، ويفتح الباب للتزاحم والأنانية، وبهذا تكون العقائد تابعة للمصالح الخاصة، فتفقد العقيدة بهذا أصالتها وقيمتها، لأن معيارها أضحى المصلحة الخاصة لا المصلحة العامة، والمصالح الخاصة متضاربة، وهذا ما يؤدي إلى اختلاف العقائد تبعاً لاختلاف المنافع.

4 ـ إن هذا المذهب اعتمد المنفعة واعتبرها هي المعيار الأساسي في العقيدة، وهو بهذا حصر المنفعة في هذه الدنيا، وأنكر الحياة في الآخرة، بينما أن للإنسان حياة أخرى ينعم فيها أو يشقى. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾[1].

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وعلى هذا، فإن مذهب الذرائع إذ يعتمد معيار المنفعة، فبأي معيار إذن يمكن أن يقرر وجود الدنيا، وينكر وجود الآخرة، وإذا كان الاستدلال يتم

(1) سورة إبراهيم، الآية: 3.
(2) سورة الأنعام، الآية: 32.

بمقياس العقل، فإن هذا المقياس هو الذي يقودنا إلى الإيمان، بالحقائق، فكيف يسوغ لنا أن نعدل عن هذا، إلى مقياس المنافع؟

ثانياً ــ عامل الاستدلال:

أصحاب هذا المذهب يرون أن الاعتقاد يجب أن يستند إلى البرهان، بالاستدلال على العقيدة، سواء كان البرهان عقلياً أو تجريبياً، وأنه لا يمكن أن تكون المنفعة سنداً للعقيدة، فكل عقيدة مجردة عن البرهان والاستدلال عليها يقتضي فحصها، فيما إذا كانت مطابقة بالدليل على ما يستدل عليها، وعلى هذا فإن العقيدة يقتضي الوصول إليها بالمعرفة الاستدلالية، لأن المنفعة تدور مع الواقع، والواقع لا بد له من دليل يؤيده، سواء كانت القضية في الطبيعة أو فيما وراء الطبيعة، ففي القضايا القائمة في الطبيعة مثلاً العلم، لا بد له من سلوك استدلالي، للوصول إليه عن طريق المعرفة، فمجرد الاعتقاد بمنفعته دون العمل للوصول إليه، لا يمكن أن يتم الوصول إليه، وكذا العليل مجرد اعتقاده بمنفعة الدواء لا يمكن أن يشفيه، بل لا بد من الاستدلال على ماهية وطبيعة الدواء الشافي لعلته، فاعتقاد المريض بدواء آخر غير ناجع لعلته لا يمكن أن يشفيه، وبالتالي فإن استعماله قد يؤدي به إلى الهلاك على الرغم من اعتقاده بمنفعة الدواء.

وقد يكون الأمر على العكس، كأن يؤمن الإنسان بعقيدة دون أن يكون لديه دليل واقعي، فيسلك بذلك سلوكاً معيناً، كالناسك الصيني أو الهندي، الذي يؤمن بإله معين، تبعاً لديانة رسمت له سلوكاً خاصاً، تدعه يترك جملة من منافع الحياة، ويزهد فيها، ثم إذا تبين له أن هذه العقيدة وهمية، لا أساس لها من الصحة، ألا يكون بذلك قد فقد كثيراً من المنافع فضلاً عن أنه بذل طاقاته وراء أوهام لا حقيقة لها في الواقع، أو قد يكون شخصاً على النقيض، كالملحد الذي لا يؤمن بأي قيم دينية، ويغرق في لذائذه في الحياة الدنيا، باعتبارها منافع له، ثم إذا تبين له بعدئذ وجود إله ورسل وأنبياء، وبعث، ومساءلة، خسر الدنيا

والآخرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] وعلم أنه لن يترك سدى بل سيحاسب على أفعاله، ألا يكون بهذا قد خسر منافع الآخرة إلى جانب منافع الدنيا الضئيلة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

وهكذا نخلص، إلى أن الطريق الصحيح للإيمان بالعقيدة هو الاستدلال وهو الرائد الصحيح لتكوين المعارف والعقائد، والتي في ضوئها يتم توجيه السلوك، وبهذا نستطيع القول، أنه لا يمكن أن تكون المنفعة مقياساً يعتمد عليه في الاعتقاد، فالاستدلال هو المنهج الواضح الموصل إلى الحقائق، والذي يرسم طريق العمل، بمعنى أن إعمال الفكر بالمنهج الاستدلالي هو الذي يوجه السلوك العملي باعتبار أن النظر الفكري يسبق السلوك العملي، وهذا ما أخذ به العلماء إذ اعتمدوا منهج الاستدلال على العقيدة، حيث أخذوا بالدليل العقلي، والدليل الأخلاقي، والدليل النقلي، ويحسن بنا أن نعرض فحوى هذه الأدلة المختلفة.

1 ـ الدليل العقلي:

هذا الدليل يقوم على مقدمة مسلم بها، مثلاً الاستدلال على المعتقد عن طريق العقل بدافع الخوف، فإذا قبلنا هذه المقدمة وجب علينا أن نقبل النتيجة؛ وهي: أن الخوف واجب عقلي. وهذه النتيجة إلزامية لا خيار لنا في قبولها.

فالبحث عن السعادة إنما هو بحث عن الخوف من المصير، فهذه السعادة لا تتحقق إلا بمقومات، فما هي هذه المقومات؟ فمثلاً الإيمان بالله عقيدة، فالبحث عن العقيدة، إنما هو بحث لتحقيق السعادة ودفع الخوف خشية من

(1) سورة البقرة، الآية: 56.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 115.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 117.

النتيجة التي تترتب على عدم الإيمان بالله، وهي الشقاء في الدنيا والآخرة. فلا بد إذن من البحث عن المجهول لتحديد السلوك الواجب، لدفع هذا الخوف، وتحقيق السعادة، وهذا لا يتم إلا بالاستدلال الذي يكشف لنا المعرفة التي تحقق هذه السعادة بمعرفة الواقع الحقيقي بالاستدلال عليه بالعقل الذي يطمئن الإنسان باعتباره قد دفع عنه الخوف. وإذ كان الأمر كذلك أضحى دفع الخوف ملزماً للإنسان، أي أنه واجب عقلي مفروض عليه، وليس من عقل يرفض هذه النتيجة للمقدمة المطروحة، فبالعقل يفكر الإنسان باحثاً عن الطمأنينة، والطمأنينة الصادقة لا تكون إلا بالعقيدة، وأداة الوصول إلى العقيدة والإيمان بها إذن هو العقل، فما هو إذن مدلول هذا العقل.

❖ فحوى العقل ومدلوله:

المراد بالعقل: القدرة على التفكير وهي التي وهبها الله للإنسان والمستوفية لشروط الفهم، والتي تؤهل الإنسان لإدراك ما يلقى إليه ويحس به ويتدبره. ويرى الراغب الأصفهاني: أن العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه، ويذهب في تقسيمه مذهب أبي الحسن البصري في كتابه أدب الدنيا والدين فيرى أن العقل عقلان:

1 ـ عقل غريزي وهو القوة المهيئة لقبول العلم.

2 ـ عقل مستفاد، وهو الذي تتقوى به تلك القوة.

وهذا العقل المستفاد هو العقل المكتسب، وهو على ضربين:

عقل مكتسب بالتجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة.

عقل مكتسب بالعلوم الأخروية والمعارف الإلهية.

ومن الملاحظ أن سلوك العقل في هذين النوعين من المكاسب العقلية متنافيان، لأن أحدهما يعتمد التجربة، والآخر يعتمد البرهان العقلي عن طريق الاستدلال والبرهان.

هذا ويرى الأصفهاني أن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل هو الأساس، والشرع هو البناء، ولن يفنى الأساس ما لم يكن البناء، كما أنه لن يثبت البناء ما لم يكن هناك أساس يعتمد عليه، أما بخصوص تكوين العقل وأثره، فإن العقل متى تقوى، تولد من حسن نظره جودة الفكر، وجودة الذكر، ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأي، ويتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم وجودة الحفظ، ويرى أن العقل يحقق السعادة التوفيقية، التي تكون موافقة لإرادة الإنسان وفعله، هي قضاء الله وقدره. وأن هذه السعادة التوفيقية هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد. ثم يخلص إلى القول أنه لا سبيل لأحد إلى شيء من الفضائل إلاَّ بهداية الله تعالى ورحمته، فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها[1]. ولعله يعتمد هذا الرأي من قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[3].

فالعقل إذن أساس المعرفة، وبه يميز الخبيث من الطيب، والحق من الباطل، وإلى هذا أشار الإمام الغزالي إلى أهمية العقل في الوصول إلى العقيدة فهو بمثابة النور الكاشف عنده.

«إن العقل المنزه عن الخبث، والذي لا تشوبه عاطفة مريبة تدفع به إلى هدم العقيدة يشبه العين السليمة من الآفات، في حين أن الشرع يشبه الشمس التي يغمر نورها الأشياء فيكسبها ألوانها، وتصبح رؤيتها أمراً ممكناً، ثم يقول في معرض تقويمه للعقل: إذا ذم العقل فما الذي بعد يحمد، وكيف يذم العقل الذي به يعرف الشرع»[4].

وهكذا نرى أن العقل هو الأداة الفعالة لمعرفة العقيدة.

---

(1) الراغب الأصفهاني ـ تفصيل النشأتين، ص63.
(2) سورة طه، الآية: 50.
(3) سورة النور، الآية: 21.
(4) الغزالي، ميزان العمل، ص3، 1962.

❖ العقل أداة البحث عن العقيدة:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ومدّه بالعقل ليحدد سلوكه في حياته علماً وعملاً، فبالعقل وحده يدرك القيم، والظواهر المحيطة بحياته، كما يدرك به وجوده، فبالعقل إذن يحسّ، وبالعقل يدرك، وبالعقل يريد، وهكذا يبدو لنا أن العقل هو الأساس في الإحساس والإدراك، والمعرفة، والعلم، والعمل. وإذا كان الإنسان بالعقل أدرك وجوده، وميز بين الخبيث والطيب، والخير والشر، والميت والحي، والعدم والوجود. فمن البديهي إذن أن يدرك الإنسان عقيدة الإيمان بوجود الله، ذلك أن الإنسان بطبيعته وغريزته يبحث عن المجهول الخفي، ويطلب المعرفة ليصل إلى الحقيقة، فروح البحث عنده لا يمكن أن تخمد طالما يحسّ بالظواهر الكونية الماثلة أمامه في هذا الوجود. فالإنسان يرى المخلوقات من نبات، وحيوان وجماد، وكون مبدع في غاية الإبداع، منظم في غاية الدقة، مترابط على أحسن ما يكون الترابط، ومتوازن به، يسكن وتتحرك فيه عوامل تموت فيه خلائق وتحيا أخرى، يرى الكون في أرضه وسمائه وكواكبه، تشرق الشمس وتغرب، ويبزغ القمر ويغيب، يتعاقب الليل والنهار، وتتلألأ النجوم، كل هذه، هل يمكن أن تكون سائبة غير خاضعة لقانون يحكمها؟ لا شك أن هذا يدعو المرء إلى إعمال عقله ليصل إلى المعرفة التي تقوده إلى العقيدة، ولكن هذا لا يتم اعتباطاً بل لا بد من أن يكون العقل رائده، ومن هنا أعطى الإسلام للعقل أهميته، لأن العقل طريق الضمير إلى الحقيقة وقد أورد الله سبحانه وتعالى الحديث عن العقل في القرآن تسعاً وتسعين مرة، كما ورد الفقه عشرين مرة، وعن الفكر تسع عشرة مرة. أي أن القرآن تحدث عن دور عقل الإنسان، وإعمال فكره وعقله في فهم الأمور والحقائق، لما له من أثر في تجديد المسؤولية، التي يحملها الإنسان تبعاً لأعمال عقله، أو إهماله في التعرف على الوجود الإلهي من خلال آيات الله ومخلوقاته فدور العقل في الاستدلال والبرهان على وجود الله هام جداً، وهو يفوق أي دور أو دليل آخر، بل هو المرشد والكاشف لكافة الحقائق واستيعابها، حتى ولو كان مصدرها دليل

نقلي أو تجريبي، إذ بالعقل يتجه المرء نحو طريق الهداية، وهو الدليل على الإيمان يقودنا إليه فطرياً وهذا ما قام به إبراهيم عليه السلام، حيث أعمل عقله ليكشف وجود الله، وقد حدّثنا القرآن عن ذلك: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وهكذا نرى أن تتبع إبراهيم عليه السلام للظواهر الكونية من كوكب وقمر وشمس كان عن طريق العقل، فأدرك بتفكيره أنه لا يمكن أن تتصف هذه المخلوقات بصفات الإله، وأنه لا بد من إله عظيم خالق لها، وهو رب السموات والأرض، ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إذن تعرف إبراهيم عليه السلام بعقله إلى الله وآمن بحتمية وجوده.

هذه الحادثة تؤيد قيمة الدليل العقلي الذي جعله الله حجة على الذين تتقاصر عقولهم عن إدراك حقيقة الوجود الإلهي. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[2].

من هذا المنطلق ركز القرآن على أهمية العقل في الاستدلال على العقيدة بالتفكير بآيات الله، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] فالعقل هو الكاشف المضيء لمعرفة الحقيقة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4].

فالدليل العقلي يوصل إلى الحقيقة إلاَّ إذا أنكرت عن تعنت وجهل، وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام، عندما أنكر على

(1) سورة الأنعام، الآية: 76 ـ 79.
(2) سورة الأنعام، الآية: 83.
(3) سورة البقرة، الآية: 242.
(4) سورة الأنعام، الآية: 151.

المشركين عبادة غير الله فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

فالعقل بالقدرة التي منحها الله كاف للاقتناع بفساد الشرك وضلاله. فنعمة العقل هي النعمة الكبرى، وهي الدليل، فإذا عطلها الإنسان ضل سواء السبيل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3].

فالعقاب الكبير للإنسان في الدنيا أن يحرم من نعمة العقل والحرمان من هذه النعمة حرمان من الإيمان، إذ العقل تفكر ثم تهتدي، وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

إذن العقل أولاً والتفكير ثانياً والإيمان يأتي نتيجة لأعمال العقل. وهكذا نخلص إلى القول: أن الدليل العقلي له المرتبة الأولى.

2 ـ الدليل الأخلاقي:

هذا الدليل يقوم على واجب أخلاقي ملزم للإنسان، إذ العقيدة عن طريق الدليل الأخلاقي، إنما هي واجبة ملقاة على الإنسان ليعرف بالاستدلال العقيدة، عن طريق المعرفة المدفوع إليها بواجب أخلاقي. فالله سبحانه وتعالى رب العالمين خلق البشر وأنعم عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[5].

فالإنسان تبعاً للمبادئ الأخلاقية، لا بد وأن يشكر من قدم له هذه النعم، من سمع وبصر، وإحساس، وعقل... للمحافظة عليها من جهة ولأن ذلك

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 67.
(2) سورة سبأ، الآية: 46.
(3) سورة الكهف، الآية: 57.
(4) سورة النحل، الآية: 44.
(5) سورة إبراهيم، الآية: 7.

واجب أخلاقي من جهة ثانية يدعو العقل إلى القيام به. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وما من منطق يقبل التنكر لمن أسدى هذه النعم على الإنسان، بل على العكس العقل يقضي بالبحث عنه والشكر له، وإلاَّ لكان الإنسان جحوداً ظلوماً، عاقاً للمنعم عليه، فإذا توصل الإنسان بالاستدلال على المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، أضحى الواجب الأخلاقي أيضاً الملقى عليه أن يشكر الله، كما أن الواجب الأخلاقي هو الذي دعاه إلى البحث عن المنعم عليه، كي يؤدي له واجب الشكر بما يناسب المشكور.

وهكذا تبين لنا أن البحث والمعرفة تمتا بالواجب الأخلاقي الذي دفعه إلى الوصول إلى العقيدة الصحيحة عن طريق الأخلاق.

3 ـ الدليل النقلي:

يرى البعض أن المعرفة بالعقيدة دليلها نقلي وليس بعقلي، وأن هذه المعرفة، بالدليل النقلي هي معرفة تصديقية لا يعمل المعتقدون فيها النظر، بل قبلوا بها وصدقوها كما رأوها، وورثوها عن آبائهم معتمدين بزعمهم هذا على القرآن بما أخبر به:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2].

---

(1) سورة النحل، الآية: 78.

(2) سورة الزخرف، الآية: 21 ـ 24.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

إن موقف هؤلاء الذين يعتمدون الدليل النقلي سلبي، فهم لا يعملون نظرهم، ولا يتفكرون للاستدلال على العقيدة عن طريق المعرفة الاعتقادية بالبرهان والدليل، وأن استنادهم على القرآن تبريراً للأخذ بالدليل النقلي، استناداً لا يعتمد على القرآن، إذ القرآن على عكس ما يزعمون فقد نهى عن هذا النوع من الاعتقاد، بل أمر بتحصيل المعتقد عن طريق الاستدلال عليه بالتفكير والمعرفة. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[3].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6].

هذا النوع من الاستدلال للحصول على المعتقد قائم على المعرفة بالدليل الصحيح المعتمد على الفكر والتأمل في الواقع الخارجي للوصول إلى المعرفة، وهذا ما أرشد إليه القرآن. ولا شك أن الأخذ بهذه الطريقة للمعرفة، تقتضي منّا الإيمان والتسليم بقدرة المفكر على المعرفة، وإلاّ لكانت محاولة المعرفة دون فكر عبث غير مجد، ومن هنا كان توجيه القرآن نحو حكم العقل، ودعوته إلى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 170.
(2) سورة يونس، الآية: 101.
(3) سورة الروم، الآية: 8.
(4) سورة محمد، الآية: 19.
(5) سورة آل عمران، الآية: 191.
(6) سورة النحل، الآية: 44.

التفكر في المخلوقات غير محددة أو مشروطة بشرط ما، فبالعقل والمحاكمة الصحيحة يصل الإنسان إلى الاعتقاد بالله.

فالمعرفة إذن عن طريق إعمال الفكر للوصول إلى المعتقد، هي الطريق الصحيح، سواء تمت عن طريق التسليم بالبديهيات العقلية، أو تمت عن طريق التجربة التي يقبلها العقل، فهي لا تخرج عن كونها معرفة أعمل فيها الفكر للوصول إليها، على خلاف الدليل النقلي. وبهذا نستطيع القول: إن الإنسان المفكر يستطيع بقدرته الكامنة في عقله أن يكشف الواقع الخارجي بالبحث والاستدلال، بالاعتماد على الأسس الموصلة إلى المعرفة اليقينية، سواء كانت هذه المعرفة التصديقية عقلية ترجع إلى قضايا بديهية غنية عن التجربة الحسية، أم كانت تجريبية مصدرها الخبرة، وعلى ضوء هذه المعارف التصديقية يستطيع الإنسان أن ينظم سلوكه العملي في الحياة، وبهذا يكون المنهج الاستدلالي في المعرفة هو العامل الصحيح لتكوين العقيدة أو المعتقد، وهو الذي يقوم على العقل.

فالعامل الصحيح للبحث عن العقيدة هو الاستدلال بالدليل العقلي مع الأخذ بشرائط القياس، واعتماد مقدماته من الأوليات المستند عليها، ذلك أن القياس أو الرأي والاجتهاد، كل هذه معتبرة من مصادر التشريع الإسلامي، وهي في الواقع طريق من طرق العقل يعمل بها للاستدلال والوصول إلى الحكم الصحيح، وبهذا تكون النتيجة دائماً واحدة. لهذا يمكننا القول: أن الدليل النقلي والإيمان عن طريقه مرفوض، لأنه إيمان بدون ارتكاز على دليل عقلي وحجة منطقية، وإلى هذا أشار ابن حزم في كتابه الأحكام فقال: «التقليد كله حرام في جميع الشرائع أولها عن آخرها، من التوحيد والنبوة والقدر والإيمان، والوعيد والإمامة والمفاضلة وجميع العبادات والأحكام».

فالدليل النقلي إذن لا يسوغ اعتماده في العقيدة إذ الإسلام يتطلب في شأن الاعتقاد أن يكون الدليل يقينياً، أي أن الإسلام يرفض كل ما كان ظنّي الدلالة، لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً. ولا يعتمد دليلاً للمعرفة والعلم. قال تعالى:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3].

هذا ومن يتبع آيات القرآن يجدها دائماً تحضّ على استعمال العقل والنظر ورتب على عدم استعمال العقل المساءلة والعقوبة. فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4] وقد وصف القرآن الذين لا يستعملون عقلهم بأنهم كالأنعام بل أضل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[5].

وهكذا نخلص إلى القول: أن الدليل النقلي مرفوض، وأن الدليل العقلي هو الدليل الصالح لإثبات العقائد، وهو خير منهاج يعتمد عليه والدين الإسلامي اعتمد العقل وهو ملازم له، وجميع أحكام هذا الدين لا تتناقض مع العقل بل العقل يؤيدها، وليس معنى هذا أن التجربة ليست بمصدر للمعرفة، ولكنها قد تكون مفيدة لليقين، بيد أن الأساس الأولي في المعرفة التصديقية هو الأوليات العقلية، وفي ضوء هذا المنهج ستحاول تتبع العقيدة الإسلامية للوصول إلى جواب عن سؤال من خلق السموات والأرض؟ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[6].

وللوصول إلى هذا اليقين يقتضي منا عرض أوليات المذهب العقلي، وهي الأساس في الاستدلال إلى خلق الكون ودلالة الاعتقاد بوجود الله، وتأتي

---

(1) سورة النجم، الآية: 28.
(2) سورة يونس، الآية: 36.
(3) سورة الجاثية، الآية: 24.
(4) سورة الملك، الآية: 10 و11.
(5) سورة الأعراف، الآية: 179.
(6) سورة العنكبوت، الآية: 61.

هذه قبل التعرض للإثبات بالبرهان، هذه الأوليات هي التي يؤمن بها الإنسان دون أي معرفة تصديقية سابقة، باعتبارها بديهيات يسلم بها العقل. وأهم هذه البديهيات هي:

1 ـ بديهية، النقيضان لا يجتمعان.

2 ـ بديهية، الممكن مرتبط بعلته.

عن البديهية الأولى: النقيضان لا يجتمعان.

هذه البديهية لا تتطلب البرهان، فكل إنسان سليم الحواس يؤمن بها، فالموضوع في هذه البديهية والنقيضان، مثال ذلك، حي وميت، موجود وغير موجود، هذان المفهومان في هذه الأمثلة يتقابلان أحدهما إيجابي والآخر سلبي والمحمول هو يجتمعان، هذه الصفة وهو الاجتماع لا يمكن تصورهما في مفهومين متناقضين في شيء واحد، بينما يمكن أن يجتمع مفهومان غير متناقضين في موضوع واحد، كصفة الإنسانية وهو مفهوم له مدلوله. وكذا الموسيقية، مفهوم آخر لها مدلولها، فإذا صادف هذان المفهومان في إنسان ما، قلنا إن هذين المفهومين اجتمعا فيه، بينما نلاحظ أن النقيضين عل العكس، لا يمكن أن يجتمعا في آن واحد في شيء واحد. لأن الإثبات والنفي، أصلاً لا يجتمعان في آن واحد، وفي موضوع واحد، وفي زمان ومكان واحد بمعنى أن معيار عدم اجتماع النقيضين، أن يكون المفهومان المتقابلان بالإيجاب والسلب شيئاً واحداً، مثبتاً ومنفياً في مصداق واحد، كقولنا هذا الإنسان ميت حي، فهذا غير وارد، أما إذا اختلف الموضوع والمحمول والزمان والمكان، والشروط أو الظروف، ففي هذه الحالات يجتمع النقيضان كالجو حار في الصيف، وليس بحار في الشتاء، فالجو بظرف الصيف إذن غيره بظرف الشتاء.. فعدم اجتماع النقيضين هنا إنما هو بحكم البداهة.

وهكذا نجد أن هذه البديهية هي المعيار الأساسي في كل معرفة تصديقية عند كل مفكرَ، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه لا يتصور إذن حصول معرفة في أي

قضية بديهية إذا كان التناقض واقعاً، أو من الممكن وقوعه. فمثلاً إذا قلنا الشمس مضيئة بديهية، وإذ جوّزنا أن الشمس لا تضيء، بمعنى ذلك أن صفة الإضاءة ثابتة ومنفية عن الشمس في آن واحد، وبهذا فلا يمكن الإيمان بإحدى هاتين القضيتين ما دام نقيضها ممكناً، أو من الممكن وقوعه. هذا في المعارف البديهية باعتبار أن العقل مسلم بها.

أما في المعارف النظرية، فكذلك لا يمكن أن نؤمن بأي قضية إلاَّ إذا كان استحالة اجتماع النقيضين متحققة فيهما، ذلك أنه في كل قضية نظرية، للتصديق بها، لا بد من إقامة الدليل على التصديق بها، وهذا لا يتم إلاَّ إذا كان الدليل صحيحاً، فإذا اعتبرنا الدليل الصحيح باطلاً، مع أنه صحيح بقبول التناقض أو بإمكانية قيامه، فلا يمكننا في هذه الحالة اعتبار الدليل صالحاً لإثبات ما نريد إثباته، ومع ذلك إذا تجاوزنا هذا، وأخذنا بالنتيجة عن دليل، مع قيام التناقض، فلا شك أن هذه النتيجة تكون باطلة، كمن يقول لنا، إن الأرض تدور حول الشمس، ثم أجاز أيضاً بأن الأرض لا تدور حول الشمس، فلا شك أن هذا التناقض يجعل النتيجة باطلة مهما كانت، لأننا في هذه الحالة نقف حائرين بأي الرأيين نأخذ؟ وهذا ما يدعونا إلى الشك في النتيجتين، إذ الشك أو اللاشك في آن واحد غير مقبول في نظرية المعرفة، كالشك أو اللاشك في وجود الله في آن واحد، هذه النتيجة غير مقبولة.

وخلاصة القول أن النتيجة هي أن كل معرفة تصديقية لا يمكن أن تحصل إلاَّ باستحالة اجتماع النقيضين.

عن البديهية الثانية: الممكن مرتبط بعلته.

وفقاً لهذه البديهية نرى: أنه انعدام لشيء ولا وجود إلاَّ بسبب خارج عنه، بمعنى أن السبب مرتبط بالشيء ارتباط العلة بالمعلول، فالمرض مثلاً ممكن وجوده، ولكنه لا يحدث إلاّ بسبب، كوجود جرثوم مثلاً، كما أن سقوط الأجسام في الأرض لا يمكن تصوره إلا بعلة الجاذبية، وكذا في العبادة

كالصلاة مثلاً، علتها الإيمان، إذ لولا الإيمان لما تحركت الجوارح بالعبادة. كل هذه الأشياء لا تتم إلاَّ بعلاقات مرتبطة بين العلة والمعلول، على أن هذا الارتباط قد لا يكون مقوماً لوجود أحد المترابطين، وقد يكون وجود أحدهما مرتبط بوجود الآخر، وهذا الارتباط في الناحيتين المذكورتين يقتضي منا الشرح والتوضيح:

❖ عن الناحية الأولى:

1 ـ الارتباط غير المقوم لوجود أحد المترابطين.

هذا الارتباط لا علاقة له بوجود أحد المترابطين لأن الارتباط هنا ليس بعلة لوجود الآخر. مثال ذلك: ذهابي إلى الطبيب للمعالجة يشكل نوعاً من الارتباط ويشكل علاقة بيني وبينه ناجمة عن مصلحتي في التداوي وهذه العلاقة تبقى قائمة ما دمت عنده، على أن هذه العلاقة لا يمكن أن تقوم وجودي ووجوده، كما أن هذه العلاقة لا يمكن أن تكون سبباً في خلق وجود الآخر، أو يكون وجودي كإنسان علة في وجوده، ذلك لأن وجود كل واحد منا مستقل عن وجود الآخر، كذلك في العبادة مثلاً، زيارتي للأماكن المقدسة في الحج تكوّن علاقة ارتباط بيني وبينها، ولكن وجودي مستقل عن وجودها.

❖ عن الناحية الثانية:

2 ـ الارتباط المقوم وجود أحد المترابطين بوجود الآخر.

في هذا الارتباط تتحقق نتيجة ما بين مترابطين، بيد أنه لا يمكن تصور حدوث هذه النتيجة إلاَّ بسبب وجود شيء آخر، وهو علة وجود هذه النتيجة مثال ذلك، نزول المطر، حدث لا يمكن تصور هذه النتيجة إلاَّ بوجود الغيوم ودرجة حرارة معينة، فهطول المطر مرتبط بأسبابه، فإذا انفصم هذا الارتباط انعدمت القضية بانعدام دليلها، وبالتالي انعدمت النتيجة، ولا يمكن التصديق

بهطول الأمطار دون سبب، فالمطر وهو الماء، متصف وجوده، بوجود السحاب ووجود حرارة معينة، فإذا زالت أحد هذه الأسباب في هذا الارتباط، انعدمت النتيجة تبعاً لها.

وهكذا نخلص إلى القول: في هذا النوع من الارتباط، أن وجود العلة هي السبب في وجود شيء آخر، وانعدامها سبب في انعدام هذا الشيء. فالله سبحانه وتعالى وجوده سبب في وجود هذا الكون، ولا يمكن لهذا الكون وما فيه من مخلوقات وكواكب أن يكون وجوده دون خالق، وهو الله سبحان خالق كل شيء. وبهذا نستطيع القول: إن كل شيء مرتبط بعلته. فإذا قبلنا هذه البديهية، تكون النتيجة التي نحكم بصحتها بديهية تبعاً لما عرفناه، إذ الممكن لا يتحقق وجوده وعدمه لذاته، بل مرتبط وجوده وانعدامه بالغير، وهذا الارتباط هو العلة بوجود الشيء، فالعلاقة إذن بين العلة والمعلول، هي علاقة ارتباط، والقانون الذي يحكم هذه العلاقة يسمى بقانون العلية، أو قانون السببية، فالتسليم بهذا القانون هو الأساس لإثبات الوجود لشيء خارجي، إذ أن إدراكنا لأي شيء مرتبط بسبب، فالرؤية لأي محسوس لا تتم لا بحاسة البصر التي هي سبب لانطباع الأشياء وإدراكها في الذهن، وكذلك معرفة الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن تتم إلاَّ بوجود عقل سليم للإنسان، فالمجنون مثلاً، لا يمكن أن يدرك هذه المعرفة، لأن العقل هو السبب لمعرفة الدليل والقيام بعملية الاستدلال، وبانتفائه تنعدم المعرفة، وبهذا نجد أن الممكن لا يتم حدوثه إلاَّ بعلَّة. فالتصورات للأشياء الطبيعية تقتضي منّا الإيمان بوجودها المادي. وبالتالي وجودها ممكن وليس بحتمي، كما أن انعدامها ليس حتمياً وإلاَّ لما وجدت، فهي إذن ممكنة. كذلك الشأن فيما وراء الطبيعة، فهي كذلك لا تخرج عن هذا القانون، على أن إثباتها يقتضي الاستدلال، فالجنة والنار وجودها ممكن، ولكن لا يمكن بدون علة، وإذا قبلنا وجودهما دون علة، معنى ذلك أننا وصلنا إلى يقين دون علة، أي أننا أنكرنا الارتباط بين الإيمان بالشيء والاستدلال إليه بالدليل، وهذا لا يمكن قبوله، لأنه يتنافى مع قانون العلة، الذي هو الأساس

لوجود أي شيء سواء في العلوم النظرية، أو في العلوم التجريبية التي تتكشف عن هذا القانون بالملاحظة أو التجربة، ولو أنكرنا هذا القانون لانهارت كافة القيم والقوانين العملية الناجمة عن التجارب، منذ وجدت حتى يومنا هذا، وهذا ما يدركه العقل بداهة، فحيث يصل الإنسان إلى سن التمييز يتساءل عن سبب وجود كل ظاهرة، كالمطر، والرعد، والشمس، والسماء، والأرض، فيتساءل لماذا وجدت؟ وبماذا وجدت؟

والنتيجة التي نخلص إليها، من مناقضة مبدأ ارتباط الممكن بعلته واحتياجه إليها، أن هذا المبدأ وهو الأساس في إثبات الموجودات المادية، بما فيها إثبات القوانين العلمية، والاستناد إليه في الاستدلال به، في كل قضية نظرية أو تجريبية طبيعية كانت، أو فيما وراء الطبيعة.

الفصل الثالث

أدلّة الاعتقاد بوجود الله

يتساءل الإنسان بفطرته عن وجود الله: هل أن وجود الله قضية بديهية، لا يحتاج إثباتها إلى برهان، أم هي على العكس؟ الواقع أن هذه القضية أثارت جدلاً منذ القديم، بل قَبْلَ عصر نوح عليه السلام، وأنه لا بد من الاستدلال عليها سواء كانت تحتاج إلى برهان أم لا، ولكن حقيقة الأمر أن قضية وجود الله سبحانه وتعالى، وخلق العالم هي من الوضوح بحيث يدركها إيماناً وعقيدة كل ذي عقل سليم، كما أنه من البساطة أن يقيم الحجة الفعلية على ذلك، وكل من ينظر إلى هذا الكون وما أودع فيه من أسرار، وما أحكم فيه من نظام، وما فيه من طاقات ومواد متنوعة، متماسكة، مترابطة الحلقات، يحكمها جميعها التوازن، لا بد وأن يقر عقله نتيجة لتفكيره في هذه الموجودات، أن هذا الكون البديع الصنع، المتناسق، له خالق مدبّر مهيمن عليه، يتصرف بعلمه الشامل النافذ، وحكمته البالغة، ويفعل فيه ما يشاء، وهو المحرك والمسكن له، وهو على كل شيء قدير، هذه النتيجة يتوصل إليها الإنسان حتى ولو لم يكن قد أوتي من العلم شيئاً، طالما أن عقله يقر مبدأ السببية لكل شيء في الوجود، والمثل الحسي المعروف، ما روي عن أعرابية عجوز عندما سئلت، بما عرفت ربك؟ فأجابت بمغزلي هذا ـ وهو ما يطوى عليه الغزل ـ إنَّ حَرَّكْتُه تَحَرَّكَ، وإن تَرَكْتُهُ سكن، لا شك أن هذا الجواب يفيد إسناد تحريك المغزل إلى مبدأ السببية،

فالأعرابية، آمنت بوجود الله، بناء على ما تراه من أحداث في هذا الكون، ولا يمكن أن تتم إلاً بمحدث لها. هذا الإيمان تحقق عندها على الرغم من عدم صياغة الدليل عندها صياغة منطقية.

فالكون إذن مرتبط وجوده ابتداءً واستمراراً بمبدأ السببية، التي هي علة وجوده، إذ لا يمكن تصور وجود هذا الكون بدون علة في إيجاده، ومبدأ العلية في هذا الكون، هو الله سبحانه وتعالى، فالإيمان بوجود الله متحصل حكماً، بالإيمان بوجود هذا الكون، وهذا ما يدركه كل إنسان حتى الجاهل، وهذه القضية التصديقية بوجود الله، تتجلى عند الإنسان، كلما أعمل فكره ونظره فيما يحيط من حوله، وإلى هذا أشار الفيلسوف بيكون[1] فقال:

«إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان، ذلك أن عقل الإنسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أمعن النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها، لا يجد بداً من التسليم بالله»[2].

هذا وقد أرشدنا الله سبحانه وتعالى للوصول إلى حقيقة الكون بالنظر العقلي، وما أكثر الآيات القرآنية التي تشير إلى ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4].

(1) فليسوف انكليزي (1561 ـ 1631).
(2) زكي نجيب محمود، أحمد أمين قصة الفلسفة الحديثة ج1 ص42 القاهرة 1967.
(3) سورة البقرة، الآية: 164.
(4) سورة الرعد، الآية: 4.

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿47﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿48﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

هذا الكون إذن بهذا التنظيم الدقيق يستحيل أن يكون قد خلق تلقائياً، أو خلق صدفة، لأن الصدفة تعني أن هذا الكون غير خاضع لقانون ما، وأن مبدأ السببية غير قائم، ويعتمدون أصحاب هذا الرأي على القياس ويرون أن خلق الكون يشبه الظواهر الاكتشافية والمخترعات التي تمت، إذ لم يكن لأصحابها سابق فكرة عنها، وأنها حدثت صدفة، دون أي تخطيط أو تصميم، إذ يقول (هلسكي): أن هذا الكون الموجود ما هو إلا نتيجة لعمليات ظلت تدور في المادة لبلايين السنين، وخلص من هذا القول: أن كافة تنوعات الكون ترجع إلى الصدفة[2]. ويرى آخرون في شأن هذا الكون «أن نظرية الصدفة ليست اختراعاً منا، وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهي تطبق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات .قطعية، وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في إمكانية وقوع حادث من نوع معين، وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث صدفة».

وفي الواقع أن من يقول بأن هذا الكون قد خلق صدفة لم يكن لتتوفر لديه المعلومات الاستدلالية على خالق الكون، فليس في هذا الكون أي حدث يحدث صدفة، إنما كل ظاهرة لا بد لها من قوانين تحكمها، حتى لو تداخلت هذه الظواهر مع بعضها البعض، ليس معنى ذلك أنها خلقت أو وقعت صدفة، فمن يعثر على قطعة ذهبية في الطريق، ليس معنى هذا، أن هذا العثور كان صدفة، بل إن العثوب على هذه القطعة الذهبية حكمتها عدة قوانين، وعدة ظواهر، فحامل القطعة الذهبية الأصلي أهمل حفظها فسقطت منه، وتبعاً لقانون الجاذبية فهي تسقط على الأرض وتستقر عليها، ومرور إنسان في هذا المكان الذي سقطت فيه وهو ينظر إلى الأرض يجعله يراها، صحيح أنه لم يكن قاصداً

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 47 ـ 49.

(2) وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى ص601.

رؤيتها ولكن التقاؤه بها، ليس من قبيل الصدفة. هذه الحادثة البسيطة تحكمها عدة قوانين. ومع ذلك فإن أنصار الصدفة مختلفون في مدلولها، فبعضهم يرى أن المراد بالصدفة، أنها في القصد؛ وهناك من يرى أن المراد بالصدفة في الإيجاد بمعنى أن الشيء يخلق من العدم، دون أن تتحكم فيه أي علة أو سبب، معتمدين بهذا علة قانون (نيوتن)، وهو: «إن كل جسم يستمر على حالته في السكون أو الحركة بسرعة ثابتة إلاَّ إذا أثرت فيه قوة غير متزنة».

هذا القانون لا علاقة له بالصدفة، لأن (نيوتن) يقرر بداية الحركة أو السكون لا بد لها من سبب، فالاستمرارية بعد الحركة تبقى قائمة ما لم يعتريها مؤثر خارجي يؤثر فيها فيوقفها، كالاحتكاك مثلاً بجسم آخر، أو بعامل الجاذبية، وعلى هذا لا يمكن أن يكون هذا القانون مستنداً للقول بخلق العالم بالصدفة، فضلاً أن هذا القانون لم يعالج الأجسام بحركتها وسكونها بعد وجودها، فهو لم يستطع أن يعطي مبرراً لوجود الجسم في الأصل، ولا يمكن لعقل أن يقبل بوجود أي شيء بالصدفة، فالقول بالصدفة إذن رأي غير مقبول، فالمخترعات الحديثة، كالأقمار الصناعية والمراكب الفضائية، أو الصواريخ، المدروسة والمصنوعة باتقان، بحيث أنه لو اختل أي جزء أو ترتيب فيها لفقدت خاصيتها وفعاليتها في الانطلاق... فأي عاقل يستطيع أن يقول إنها صنعت صدفة، أو أنها وجدت من العدم، أو بدون علة وهو الصانع لها، هذا بالنسبة لهذه الأشياء. فما هو القول بالنسبة لهذا الكون وما فيه من أسرار تعجز العقول عن إدراكها، لا شك أنها لم توجد صدفة أو من العدم، يقول (كلودم هاثاوي): في التدليل على أن لهذا الكون خالق مبدع ما يلي: «لقد اشتغلت سنوات عديدة بتصميم مخ إلكتروني، وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التي تطلبها تصميمه، ووصلت إلى حلها، صار من المستحيلات بالنسبة إليّ أن يتصور عقلي، أن مثل هذا الجهاز ممكن عمله بأي طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم. وليس العالم من حولنا إلاَّ مجموعة هائلة من التصميم، والإبداع والتنظيم، وبرغم استقلال بعضها عن بعض، فإنها

متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيداً من كل ذرة من ذرات تركيبها، من ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته، فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى التصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفيسيولوجي الكيمي البيولوجي الذي هو جسمي والذي ليس بدوره إلاَّ ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي واتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه»[1].

وهكذا نجد أنه لا يمكن لعاقل أن يقرر أن الكون بتنظيمه ودقته، واختلاف الفصول والليل والنهار فيه، جميعها وجدت صدفة، إذ لو صح ذلك لتعطلت كافة القيم والقوانين لجميع الظواهر الطبيعية والحياتية للكون وللإنسان، ولأصبح ممكن القول أن تفكير الإنسان وأحاسيسه وحركاته، وسعيه، جميعها من قبيل الصدفة، كما أن النار يمكن أن تحرق بالصدفة، وأن الشمس وجدت بالصدفة، ويمكن أن تضيء بالصدفة أو لا تضيء، وأن الكتب يمكن أن توجد بالصدفة بما فيها من معلومات من طب أو هندسة، كما أن الحروف في المطبعة يمكن أن تترتب من تلقاء نفسها وتطبع ما تشاء بالصدفة. لا شك أن مثل هذا المنطق لا يقبله إلاَّ مجنون. ويقول (إيدوين كونكلين):

«إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة»[2]. فالقول بخلق هذا الكون من العدم بصورته الحالية وفعاليته، وأنه تم صدفة وبدون أي علة سببية في خلقه، قول لا يستند إلى اتزان عقلي، لأنه ما من حركة في الوجود إلاَّ ومرتبطة بعلة أو سبب أوجدها، إذ وجود الشيء بحد ذاته هو الذي يدفعنا إلى معرفة علة وجوده بالبحث عنه. والنتيجة التي نخلص إليها أنه ما من ظاهرة كونية إلاَّ وهي آية من آيات الله، وخاضعة لقانون العلة أو السببية، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

(1) أ. كريسي موريسون ـ العلم يدعو للإيمان. ترجمة صالح الفلكي ص15 ط1971.
(2) وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى ص107 ط بيروت دار البحوث العلمية.

وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شيء، ربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه، ما شاءه كان، وما لم يشأه لم يكن، كل ما في الكون من حركة وسكون، وموت وحياة بقضائه، وقدره، مالك الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وفي كل شيء له آية تدل على أن الخالق الواحد، كل هذا يمكن الاستدلال عليه بكل بساطة إذا أعمل المرء عقله، فالأدلة على وجود الله وخلقه لهذا الكون عديدة، وسنقصر بحثنا هنا على ثلاثة أدلة وهي:

1 ـ دليل الحدوث.

2 ـ دليل الإمكان.

3 ـ دليل النظام.

1 ـ في دليل الحدوث:

الحادث هو صفة للشيء الموجود، والذي سبق وجوده، العدم أو الغير وهو ضد الأزلية، التي هي صفة لشيء لا بداية لوجوده، فالأزلي إذن غير مسبوق بالعدم، أو بالغير، فكل موجود تبعاً لما ذكرناه، إما أن يكون حادثاً أو أزلياً، ولا يمكن في الشيء الواحد أن تجتمع صفة الحدوث والأزلية، لأن هاتين الصفتين متناقضتان لا تجتمعان في آن واحد.

من خلال هذا المبدأ يتقرر معنا، أن العالم حادث، وهو مسبوق بعدم،

---

(1) سورة الزمر، الآية 5 و6.

(2) سورة الأعراف، الآية: 54.

وما كان كذلك لا يمكن أن يكون وجوده صدفة، وباعتباره حادثاً لا يمكن أن يكون أزلياً، فلا بد إذن من علة أوجدته، حتى لو تسلسلت العلل، فإذا كانت على وجود الكون حادثة وفلا بد لهذه العلة من علة أخرى أوجدتها وهكذا، لو تسلسلت العلل إلى ما لا نهاية، فإنها جميعها لا بد لها من علة توجدها إلى أن نصل إلى علة أزلية في وجودها، غنية عن أي علة أخرى، وبهذا فإننا نقر مبدأ العلية، ونقف عند العلة الأزلية، هذا هو المنطق المعقول، وفي غير هذا إنكار لمبدأ العلية أصلاً وهذا ما يرفضه العقل.

وهكذا نخلص إلى القول أن الأزلية إذ تتمع بخصائص، وهي البساطة، وعدم التغيير، واستبعاد التركيب عنها، هذا المبدأ إذ نقره، معناه أننا نقر بالأزلية لله سبحانه وتعالى، الخالق لهذا الكون. ويحسن بنا أن نذكر خصائص الأزلي والحادث نظراً لأهميتها في توضيح مفهوم الأزلية والحادث.

❖ خصائص الأزلي والحادث:

الخاصة الأولى: الأزلي يتصف بالبساطة والحادث مركب.

الأزلي باعتباره بسيطاً فهو غير مركب إذ هذه الصفة وهي التركيب تنتفي عنه، لأن التركيب يقتضي وجود أجزائه، وهذه الأجزاء، توجد إما مقارنة لوجود المركب، أو سابقة عليه، فإذا كانت سابقة على وجوده، معنى ذلك أن المركب متأخر وجوده عن وجود أجزائه، كوجود الخشب، والمواد الأولية، لصنع المنزل، وبالتالي نجد أن المركب حادث، وكل حادث لا يمكن أن يتصف بالأزلية، أما إذا افترضنا وجود المنزل مقارناً لوجود أجزائه، فإن هذا الافتراض، يعني أن هذا المنزل ممكن انحلاله أو تجزئته وانفصال هذه الأجزاء عنه، فإذا جاز انفصالها أو انحلالها. كما إذا حللنا الماء المركب إلى أوكسجين وهيدروجين انتفى بهذا التحليل الماء، وفني المركب، وبالتالي انتفت صفة الأزلية، بل استحالت وعلى هذا نستطيع القول أن المركب لا يتصف بالأزلية.

الخاصة الثانية: الأزلي مستقل بوجوده عن غيره وغني عنه والحادث مرتبط مع غيره.

الأزلي إذ يتصف بالاستقلالية، نجد أن الحادث مرتبط مع غيره ومفتقر لوجوده إلى الغير، فالأزلي وجوده قائم بذاته غير مفتقر إلى الغير، لاستحالة التركيب فيه، لا من الغير ولا من الذات، وعلى هذا الأساس لا يتصور فيه العدم مطلقاً، لعدم اتصافه بهذه الصفة، لأنه غير مفتقر إلى موجد له، على خلاف الحادث فوجوده مرتبط مع غيره أي هو بحاجة إلى الغير كي يفضي عليه الوجود من العدم، فهو إذن مسبوق بالعدم، والوجود صفة طارئة عليه من الغير.

الخاصة الثالثة: الأزلي أبدي لا يعتريه الفناء، والحادث يطرأ عليه الفناء.

الأزلي باتصافه بالأبدية تنتفي عنه صفة الفناء، بينما الحادث يطرأ عليه الفناء، لأن وجوده كان عارضاً، وبما أن الأزلي غني عن الغير، فوجوده إذن مجرد من أي علة توجده. وإذا كان الأمر كذلك، فهو إذن ليس بممكن الوجود، لانتفاء العلة بإيجاده، فهو إذن ممكن وجوده، وبهذا فهو مرتبط بعلة إيجاده، بل وهي سبب في إيجاده، فإذا انتفى السبب، انتفى وجوده تبعاً لذلك، لانقطاع الارتباط بين العلة والوجود، وبانقطاع العلة يجوز حينئذٍ عليه الفناء.

هكذا نخلص إلى القول أن الأزلية والأبدية صفتان متلازمتان، تنتفي بهما صفة الحداثة وصفة الفناء؛ وبما أن الله سبحانه وتعالى يتصف بالأزلية والأبدية، فهم لا يفنى ولا يستحدث، لأن ما يثبت عليه الحدوث يجوز عليه الفناء، فهو حادث، وما يثبت عليه الأزلية استحال عليه الفناء، وهذه الصفة الأزلية لا يتصف بها إلاَّ الله جل شأنه. فهو حي أزلي أبدي سرمدي.

الخاصة الرابعة: الأزلي لا يتغير والحادث متغير.

الأزلي يتصف بصفة عدم التغير بينما الحادث متغير، والتغيير في الحادث يفقد بعض أجزائه أو بعض الصفات، وبهذا الفقدان يتغير الشيء، سواء ببديل عن هذه الأجزاء أو بدون بديل، طالما أن الفقدان تم فالتغيير حصل. والتغيير

المقصود هنا، هو مطلق فقد يكون التغيير ببعض لبعض الأجزاء، أو بزيادة في المتغير، أو في بعض صفاته. ولا شك أن التغير يستحيل أن يطرأ على الأزلي، لأن التغير يقتضي التركيب، وصفة التركيب منتفية عن الأزلي.

وقد يكون التغيير فيه تحول بسيط إلى حقيقة أخرى بسيطة أيضاً، هذا التحول يعني انعدام الحقيقة الأولى، وحلول حقيقة أخرى محلها، بمعنى أن هناك نهاية للحقيقة الأولى، وبداية للحقيقة الثانية التي حلت محل الحقيقة الأولى، وصفة البداية والنهاية تتنافى مع صفة الأزلية التي ليس لها بداية ولا نهاية. وبالتالي فإن التغير أو التحول للأزلي محال، فضلاً عن أن التغير يحمل صفة التركيب، والتركيب يتنافى مع البسيط الذي تتصف به الأزلية.

وقد يكون التغيير الحاصل بانعدام الشيء كلياً، وهذا كما قررناه مستحيل على الأزلي، لأن الأزلي يتصف بالأبدية وعدم الفناء، والنتيجة التي نصل إليها، أن الله سبحانه وتعالى أزلي غني وجوده عن غيره لا يفنى ولا يستحدث ولا يتغير.

2 ـ في دليل الإمكان:

الأصل في الأشياء المعلومة أن تكون ممكنة لذاتها، أو واجبة لذاتها، أو مستحيلة لذاتها، فالممكن لذاته، صفة لشيء بمقتضى العقل يمكن وجوده أو عدمه لذاته من غير سبب خارج عنه، وهذه الصفة يقابلها صفة الوجوب، كما يقابلها استحالة الوجود.

أما الواجب الوجود فهي صفة بحتمية وجود الشيء الخارجي بذاته.

أما المستحيل الوجود فهي صفة للشيء الذي يحكم العقل بأنه مستحيل وجوده الخارجي لذاته، فالمعلوم إذن لا بد وأن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم[1]؛ وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الشيء المتصف بالإمكان لا يوجد

(1) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص14.

إلا بسبب، ولا ينعدم إلاً بسبب، فالسبب إذن هو منشأ الوجود، وهو العلة الفاعلة الإيجابية والسلبية، بمعنى أنه كما هو منشئ يكون معدماً، كالبناء مثلاً هو سبب وجود المنزل، وقد يكون السبب للإيجاد ثم يستغني عنه، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه، والبناء سببه حركات البناء، وهي الطاقة الفاعلة مع وجود أدوات البناء، في ضوء ذلك نلاحظ أن الصور الذهنية عامة لا تخرج عن أن تكون صوراً لموجودات مادية، كصور الحيوانات والنباتات أو أن تكون صوراً لموجودات غير مادية، كالفضيلة، والعدالة، والجزئية، والكلية، والنسبية؛ هذه الصور قد يكون منها ما يتصف بإمكانية وجوده الخارجي لذاته، فتحكم عليه بداهة، أو عن دليل ينفي استحالة وجودها.

فهي إذن جائزة الوجود، أو ممكنة الوجود، أو واجبة الوجود، وواجبة الوجود هذه يستحيل اتصافها بالعدم في الخارج، بل هي متصفة بالوجود الدائم، وإن وجودها هو عين ذاتها، فالواجب الوجود، وجوده عين ذاته، والإيمان بوجوده هو الاعتقاد بديمومته، وهذا ما عليه المعتقدون بوجود الله، هذه الصورة التي نطلق عليها (واجب الوجود) وهو الله تعالى عز شأنه.

هذا ويمكن أن تكون الصور جائزة الوجود فيجوز عليها العدم لذاتها خارجاً بمعنى أن العقل لا يرى اتصاف هذه الصور الذهنية في الوجود الخارجي حتمياً وإلزامياً، كما لا يرى اتصاف وجودها الخارجي ذاتياً بالعدم حتمياً لذاتها، أي أن هذه الصور بنظر العقل متكافئة في التعادل، فإذا وجد سبب يوجب انعدامها انعدمت، أو وجد ما يوجب وجودها خارجاً وجدت. فصفة العدم، أو صفة الوجود ليست ذاتية لا تفارقه، فتجمد أو غليان الماء مثلاً، لا يفرض حدوثه دون سبب، إذ لا يتم إلاً بدرجة حرارة معينة وشروط معينة، أي أن الماء وتبعاً لتوفر هذه الشروط يحتم وجود الغليان أو ينعدم. أما الواجب الوجود كما مر معنا، فعلى العكس، إذ صفة الوجود فيه ذاتية، فيستحيل تفكيكها أو تغييرها من ذات إلى ذات أخرى، وإلا لما اتصفت بصفة وجوب الوجود. هذا كما أن الصور الذهنية بنسبتها إلى الوجود الخارجي يمكن أيضاً أن نحكم عليها بداهة أو

دلالة باستحالة وجودها في الخارج لذاتها، كاستحالة وجود النقيضين في كل زمان ومكان، كالوجود والعدم في آن واحد، هذه الصفة، يستحيل في نظر العقل وجودها ذاتياً، في كل زمان ومكان، فاستحالة اتصاف الصور الذهنية كاجتماع النقيضين بالوجود الخارجي لذاتها، تفقد الذاتية بالبداهة، لوجودها أو لتقبل وجودها الخارجي في كل زمان ومكان، كتصور شريك الله سبحانه وتعالى، فهذه الصفة غير قابلة للوجود بالنسبة للوجود الخارجي ذاتياً إذ هذه الصور يستحيل وجودها، أو يمتنع وجودها.

❖ خصائص الممكن:

للممكن خصائص يتميز بها وهذه الخصائص هي:

الخاصة الأولى: تساوي مركز الممكن والمنعدم من حيث السبب.

هذه الخاصة تعني أن الممكن قد يوجد، وقد ينعدم، فمركزه بالنسبة لوجوده وانعدامه متساوٍ، أي أن الممكن لا يتحتم وجوده، كما لا يتحتم انعدامه، بل يتساوى مركزه في الوجود أو العدم، تبعاً لسبب وجوده أو سبب انعدامه، أي أن إمكانية وجود الشيء يرجح إذا وجد سبب لوجوده، كما أن انعدامه قد يرجح على وجوده إذا وجد سبب لانعدامه، كل هذا بسبب خارجي، وهذا يدعونا إلى القول أن الممكن لو لم يكن تحققه أو انعدامه بسبب خارجي عن ذاته، لكان واجب الوجود بذاته أو ممتنع الوجود بذاته.

الخاصة الثانية: استمرارية الوجود تتبع استمرارية العلة.

في هذه الخاصة نجد أن الممكن يتأثر وجوداً وعدماً باستمرارية علته في الوجود والعدم، أي أن وجوده وانعدامه مرتبط بدوام علة وجوده واستمرارها، أو دوام علة الانعدام واستمرارها، فلو وجد الممكن على الرغم من زوال علة وجوده، معنى ذلك أن هذا الممكن الموجود قد استغنى عن علة وجوده أي أن وجوده أضحى ذاتياً، وهذا ما يجعله واجب الوجود، وهو خلاف لما اتصف به هذا الغرض. وكذلك الشأن بالنسبة للانعدام فإذا فرضنا أن علة الانعدام قائمة

ومستمرة فهو معدوم، وإذا بقي أيضاً معدوماً على الرغم من زوال علة الانعدام وغير مرتبط بأي علة أخرى، معنى ذلك أن المعدوم مستغنٍ في انعدامه عن أي علة أخرى، أي أنه غني بذاته في هذا الانعدام، وما كان غنياً في الانعدام بذاته، فهو ممتنع الوجود، وهذا خلاف للغرض الذي طرحناه.

هذه خصائص الممكن في الوجود والانعدام، أما الواجب الوجود، فيختلف في خصائصه، باعتباره ينفرد بها وحده على وجه التخصيص، ويحسن بنا أن نعرض بعض هذه الخصائص.

❖ خصائص واجب الوجود لذاته:

لواجب الوجود خصائص ينفرد بها وحده، وهذه الخصائص هي:

الخاصة الأولى: أن واجب الوجود غني عن كل ارتباط بغيره.

يتصف الله سبحانه وتعالى بهذه الخاصية على وجه الانفراد، فهو غني عن العالمين، أي أنه غني عن كل ارتباط مع الغير، إذ لو صح ارتباطه بالغير لزال بزوال هذا الارتباط، ولما كان واجب الوجود، بل كان ممكن الوجود، تعالى الله عزّ شأنه عن ذلك، فهو واجب الوجود لذاته غني عن كل شيء.

الخاصة الثانية: الواجب الوجود لذاته بسيط ولا يمكن أن يكون جسماً.

هذه الخاصة تنفي عن واجب الوجود أن يكون جسماً، إذ لو كان جسماً لكان مركباً، ولكانت له أجزاء تخرجه عن الكل، ويكون مرتبطاً بها، ولتقدمت أجزاؤه على وجود جملته التي هي ذاته، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة، فيكون جملته محتاجاً إلى وجود غيره، والواجب هو كل ما كان وجوده لذاته، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود أجزائه[1]. وما كان مرتبطاً بالأجزاء، يكون متعلقاً بها أي متعلقاً بالغير،

---

(1) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص18.

وما كان كذلك يكون ممكن الوجود، وهذا ما يتنافى مع صفات الله تعالى عز شأنه.

الخاصة الثالثة: الواجب الوجود لا يمكن أن يكون عرضاً.

إن انتفاء أن يكون الواجب الوجود جسماً، فهو لا يمكن أن يكون عرضاً، لأن ما كان عرضاً يكون له لون، أو شكل، لأن الأعراض تلتزم بالأجسام التزام ارتباط، وتوجد بوجودها، وهذا يتنافى مع واجب الوجود، بل هي من صفات الممكن ولوازمه، والله سبحانه، وتعالى جل شأنه عن أن يكون عرضاً أو جسماً.

الخاصة الرابعة: الواجب الوجود تنتفي عنه صفة التغيير.

إن التغيير يفيد التبديل بالزيادة أو النقص سواء في جوهر الشيء أو عرضه، فضلاً عن هذا، فإن التغيير يعني أن واجب الوجود مركب، وهذا ما نفيناه عنه، كما أن الزيادة أو النقص لا يمكن أن تكون طارئة إذا كانت ذاتية، وإذا كانت ذاتية، فهي مع أول الوجود ولا تتغير، أما إذا لم تكن ذاتية فهي حاصلة بسبب ما، بمعنى أنها معلولة بعلة وهو الغير، وما كان معلولاً فهو مرتبط بالغير، وهذا ما يتنافى مع صفات الواجب الوجود، بل هي من صفات الممكن، تعالى الله أن يكون كذلك بل هو المغير ولا يتغير.

الخاصة الخامسة: الواجب الوجود لا يكون قابلاً للقسمة.

إن هذه الخاصة إذ تفيد عدم قبول واجد الوجود في القسمة، في أحد الامتدادات الثلاث، أي لا يكون له امتداد، لأنه لو قبل القسمة لتغير وجوده الأول، وصار إلى وجودات متعددة، وهي الأجزاء الحاصلة من القسمة، فيكون قبولاً للعدم وهو محال، لهذا فهو يستحيل فيه التعدد، لأن في هذا أيضاً ما ينافي مفهوم الكلية، كما أنه يفيد وجود الأفراد، والتعدد في الأفراد يعني الاتحاد فيما بينهم حسب نوعهم، وهذا ما يميز كل نوع عن أفراد غيره، وبهذا يكون الفرد حكماً مؤتلفاً مع نوعه، بالاشتراك بذات الصفات، كالصفة الإنسانية، وصفة الحيوانية الناطقة ومقتضياتها، فهي صفات مشتركة، وقائمة في كل إنسان، وما كان كذلك فهو يتصف بصفة التركيب، والتركيب يتنافى مع واجب الوجود.

الخاصة السادسة: الواجب الوجود قديم أزلي.

هذه الخاصة القدم والأزلية يتصف بها واجب الوجود، إذ لو لم يكن كذلك لكان حادثاً، وما كان حادثاً يكون مسبوقاً بالعدم، وما كان مسبوقاً بعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود، فلو لم يكن الواجب الوجود قديماً، لكان محتاجاً إلى موجد يوجده، أي أنه محتاج لغيره، وهذا يتنافى مع الواجب الوجود لذاته[1].

الخاصة السابعة: الواجب الوجود لا يطرأ عليه العدم.

هذه الخاصة منفرد بها واجب الوجود فلا يسوغ أن يجري عليه العدم، إذ لو طرأ عليه العدم للزم سلب صفة الوجود لذاته عنه، ولكان هذا من قبيل سلب الشيء عن نفسه، وهذا محال بالبداهة، فضلاً عن أن طروء صفة العدم عليه، يعني أنه حادث، والحادث يتنافى مع واجب الوجود لذاته.

وهكذا وجدنا أن جميع الخصائص التي يختص بها واجب الوجود منفردة في ذاته على وجه الإطلاق لا يشاركه فيها أحد فالله واجب الوجود وليس كمثله شيء.

❖ اقتضاء العقيدة لصفات واجب الوجود:

إن العقيدة الإسلامية تقتضي صفات لواجب الوجود ذلك أن الواجب الوجود يختص بخصائص يقررها العقل بديهياً، وما كان واجب الوجود يستلزم بطبيعة وجوده بذاته «ومعنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل ولكنه يتمثل بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة»[2]، فواجب الوجود إذ هو مصدر كل وجود ممكن، فهو بالطبع أقوى الموجودات على الإطلاق لأنه هو موجدها، وما كان في هذه المرتبة العليا يستتبع حكماً من الصفات ما تليق وتلائم هذه المرتبة العليا، من تمام الصفات

(1) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص17.

(2) الإمام محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص18.

وكمالها، فكل ما يتصوره العقل كمالاً في الوجود وما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور، أمكن أن يكون له على وجه الثبوت، باعتبار أن واجب الوجود هو مصدر هذا النظام الكائن في الكون، يصرفه كما يشاء بحكمة ودقة، لا اضطراب فيها ولا خلل، فبديهي أن يكون مقتضى هذه المرتبة واجب الوجود مستمراً ثابتاً، فالواجب الوجود إذن بداهة يستتبع الصفات التي تقتضيها مرتبته هذه، وكل ما يمكن أن يكون له، وسنعرض صفة الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والاختيار والوحدة.

1 ـ الحياة:

واجب الوجود يقتضي أن تكون له صفة الحياة، هذه الصفة تعتبر من كمال وجوده بداهة، وإذا كانت الحياة هي مصدر النظام القائم فإن هذا النظام مرتبط بحياة واجب الوجود، فثبوت هذه المرتبة من كمال وجوده، باعتباره يتصف بالواجب الوجود، وما يتصف به من حياة أضحى واجب الثبوت له، وما كان واجب الوجود وواجب الحياة، وجب أن تكون له صفة العلم، والإرادة، وإذا لم تثبت له هاتان الصفتان فهو من الممكنات، وهذا ما يناقض ما تقرر لدينا من أنه واجب الوجود، كما أنه من جهة ثانية، إذا لم تثبت له هذه الصفات، لكان يمكن أن تكون لمن هو أكمل منه وجوداً، وهذا محال على الله سبحانه وتعالى، فهو أعلى الموجودات وأكملها فيه، وهو مصدر وجودها. وطبيعي أن يكون الله بهذه المرتبة، إذ أن الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود، هو الأصل والعلة لكافة الموجودات في هذا الكون، وهو الواهب لهذه الموجودات، وما كان كذلك لا تنتفي عنه الصفة التي منحها، إذ معطي الحياة لا يمكن أن يكون فاقداً لها، وهو مصدرها، ويقول الإمام الغزالي في شأن الحياة: «وإذا قيل له حي، لم يرد به إلاَّ أنه عالم علماً يفيض عنه الوجود الذي يسمي فعلاً له فإن الحي هو الفعال الدارك، فيكون المراد ذاته مع إضافة إلى أفعال»[1] فصفة الحياة

(1) الغزالي ـ تهافت الفلاسفة ص167.

أزلية قائمة لذاته تعالى وتقتضي حكماً صفة العلم له والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. والدليل صفة الحياة ثابتة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[1].

فالحياة إذن محققة لذات الله تعالى بدليل القرآن وبالدليل العقلي، فمن كانت له صفة العلم والإرادة والقدرة، لا بد وأن تكون الحياة متحققة له عقلاً.

2 ـ العلم:

إن العقيدة بوجود الواجب الوجود تقتضي حتماً أن يكون له صفة العلم، فهو الكاشف، والمطلع، والعالم بكل شيء، فصفة العلم من كمال الوجود، وما كان واجب الوجود كان عالماً، وأن صفة العلم إذا كانت من الصفات الممكنة في الموجودات الممكنة، فإن الله جلَّ وعلا، هو الواهب للممكن صفة العلم، فمحال أن تنتفي هذه الصفة عن الواهب لها. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[3].

فالواجب الوجود يعلو علمه على كل العلوم، وهو المحيط بكل شيء، وإن لم يكن ذلك لكان يمكن بتصور العقل تصور علماً أشمل لوجود أكمل، وهذا محال بالنسبة لواجب الوجود، فعلمه فوق كل علم، كما أن علمه يخالف علم الممكنات، وعلمه لازم لوجود الواجب، قائم بوجوده، غني بعلمه، وغير مفتقر إلى شيء من وسائل العلم، أو مقوماته، وليس لعلمه شبيه أو مثيل، وعلمه أبدي أزلي، غني عن التفكير أو إعمال العقل فعلمه بالضرورة يخالف علم الممكنات.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 255.

(2) سورة البقرة، الآية: 255.

(3) سورة العلق، الآية: 5.

ومن أدلة علمه ما أقمنا الدليل على وجود نظامه في هذا الكون عند بحثنا أدلة النظام، فقد أبدع في نظام الكون وترابطه وتوازنه، ووضع كل شيء في موضعه تبعاً لما يحتاج إليه كل مخلوق لاستمرار بقائه بما قدر له العليم الخبير، وأحكم فيه التناسق العجيب بارتباط يجمع بينها، وما يعرض لها مع اختلاف خواصها ومميزاتها وتفاوت تراكيبها أو اختلاف نسبها، وعناصرها وذراتها، محسوسات كانت أو غيبيات، فهو وحده أنشأها وأتقن صنعها، وهو وحده يعلم مفاتيحها. قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[2].

وحسبنا من علمه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

وهكذا نخلص إلى أن صنعة العلم محققة للذات العلية سبحانه وتعالى بالدليل الثابت في القرآن الكريم، فقد خلق بقدرته، وعلمه الكون وما فيه من

---

(1) سورة النمل، الآية: 88.
(2) سورة الطلاق، الآية: 12.
(3) سورة الأنعام، الآية: 59 و60.
(4) سورة آل عمران، الآية: 5.
(5) سورة السجدة، الآية: 4 ـ 6.

موجودات وأتقن صنعه بحيث جاء في منتهى الدقة دون خلل أو نقص أو اضطراب. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1].

والذي يعرف طبيعة هذا الكون ونظامه كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها... يدركه الدهش والذهول.. ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم)[2] فنظام الكون مهما بلغ العلماء من قدرة فهم قاصرون عن إدراك حقيقته، وما فيه من قوانين لا تزال غيبية. فالله وحده عالم الغيب والشهادة، والله وحده عالم بكل شيء، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، مما لا يدع مجالاً للشك، أن هذا الكون بما فيه من ترابط وتناسق وتوازن بمقدار يريده الله حفظاً لدقة سيره، ودقة إتقانه، لدليل عقلي واضح على أن صفة العلم قائمة في ذاته، أزلية ومتحصل تحقيقها بوجود واجب الوجود.

3 ـ الإرادة:

المراد بالإرادة بالمعنى الاصطلاحي المألوف أنها قوة عقلية دافعة أو مانعة لتصرف ما، وبها يخول المرء أن يقوم بعمل أو يمتنع عن أن ينفذ ما قصده بإرادته أو يرجع عنه، أي (أنه يميز الشيء عن مثله) هذه الصفة بهذا المعنى محققة في البشر فهي هي قائمة بالنسبة لواجب الوجود؟ لا شك أن مفهوم الإرادة بالنسبة للممكن قد يعتريها التردد، إذ التردد من توابع النقص في العالم وتتغير بالتالي إرادته تبعاً لتغير الحكم وتبعاً للبواعث والدوافع إلى الفعل أو الترك، وهذا ينطبق على الممكن، إذ العزائم عنده قابلة للفسخ وتتغير إيجاباً وسلباً، وإقداماً أو إحجاماً، فهي إذن تتأثر بأعباء الحياة ومستلزماتها، كما أنها تتأثر بمقدار النقص في العلم أو الاطلاع، وهذا بالنسبة لإرادة الواجب الوجود محال، إذ ثبت لدينا أنه عالم بكل شيء، وهو ما ثبت له بالضرورة، فمن كان عالماً يكون من مستلزمات علمه أن يكون مريداً، ويفعل على حسب علمه

---

(1) سورة الملك، الآية: 3.

(2) إسماعيل الدفتار ـ قبس من هدى الرسول ﷺ ـ مطبوعات الشعب ص7.

وإرادته. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[2].

وقد برهن الإمام الغزالي على صفة الإرادة في الواجب الوجود بقوله:

«إنما وجد العالم حيث وجد، وعلى الوصف الذي وجد وفي المكان الذي وجد، بالإرادة، والإرادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله، ولولا أن هذا شأنها لوقع الاكتفاء بالقدرة، ولكن لما تساوت نسبة القدرة إلى الضدين، ولم يكن بد من مخصص يخصص الشيء عن مثله، فقيل: للقديم ـ وراء القدرة ـ صفة من شأنها تخصيص الشيء عن مثله. فقول القائل: لم اختصت الإرادة بأحد المثلين؟ كقول القائل لِمَ اقتضى العلم الإحاطة بالمعلوم على ما هو به؟ فيقال: لأن العلم عبارة عن صفة هذا شأنها، فكذا الإرادة عن صفة هذا شأنها، بل ذاتها تمييز الشيء عن مثله. . . ثم يردّ على اعتراض بهذا الخصوص فيقول: فيم تنكرون على من يقول: دليل العقل ساق إلى إثبات صفة الله تعالى من شأنها تمييز الشيء عن مثله؟ فإن لم يطابقها اسم الإرادة، فلتسم باسم آخر، فلا قسامة في الأسماء، وإنما أطلقناها نحن بإذن الشارع، وإلا فالإرادة موضوعة في اللغة لتعيين ما فيه غرض ولا غرض في حق الله»[3]، لأن أفعاله سبحانه وتعالى لا تعلن بالأغراض، إنما هي لحكمة يريدها فهي منزهة عن العبث، وإن خفيت علينا حكمة إرادته: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَمَا

---

(1) سورة الرعد، الآية: 11.
(2) سورة المائدة، الآية: 41.
(3) الإمام الغزالي ـ تهافت الفلاسفة ص103 ـ 104 ط4، دار المعارف القاهرة 1966.
(4) سورة الجن، الآية: 10.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 115.

﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1].

قال الإمام الغزالي:

«وإذا قيل (مريد) لم يعن به إلاَّ أن ما يفيض عنه ليس هو غافلاً عنه، وليس كارهاً، بل هو عالم بأن كماله في فيضان الكل عنه، فيحسن بهذا المعنى أن يقال: هو راض، وجاز أن يقال للراضي أنه مريد، فلا تكون الإرادة إلا عين القدرة، ولا القدرة إلا عين العلم، ولا العلم إلا عين الذات، فالكل إذن يرجع إلى عين الذات، وهذا لأن علمه بالأشياء ليس مأخوذاً من الأشياء، وإلاَّ لكان مستفيداً وصفاً أو كمالاً من غيره، وهو محال في واجب الوجود»[2].

4 ـ القدرة:

القدرة صفة من كمال الله سبحانه وتعالى، مقتضاها الإيجاد والإعدام، وتقوم مع العلم والإرادة، فلا ريب في واجب الوجود أنه عالم مريد، وما كان عالماً لا بدّ وأن يكون مريداً، ومقتضى هذا أن يكون ذا سلطة بما علم وأراد، وبالتالي يكون قادراً، إذ لا معنى للقدرة دون سلطان. ويقول الإمام الغزالي رحمه الله في الرد على من ينكرون هذه الصفة: «بم تنكرون على من يقول الإيجاد والإعدام بإرادة القادر».

«فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أوجد، وإذا أراد أعدم، وهذا معنى كونه سبحانه قادراً على الكمال، وهو في جملة ذلك لا يتغير في نفسه وإنما يتغير الفعل»[3]. فصفة القدرة قائمة قيام الصفات بالموصوفات وهو مع ذلك قديم ولا فاعل له، فالله سبحانه كامل، وصفات الكمال التي منها القدرة لا تباين ذات

(1) سورة الأنبياء، الآية: 16 ـ 18.
(2) الغزالي ـ تهافت الفلاسفية ص166 ـ 167.
(3) الغزالي ـ المرجع السابق ص131.

الكامل، إذ الكامل لا يحتاج إلى كمال، (فإذا كان لم يزل ولا يزال كاملاً بالعلم والقدرة والحياة، فكيف يكون محتاجاً، أو كيف يجوز أن يعبر عن ملازمة الكمال بالحاجة. . . فالمحتاج إلى وجود صفات الكمال لذاته، ناقص، فيقال: لا معنى لكونه كاملاً إلاَّ وجود الكمال لذاته، فكذلك لا معنى لكونه غنياً، إلاَّ وجود الصفات المنافية للحاجة لذاته»[1].

وكذلك لا معنى لكونه قادراً، إلا وجود الصفات المنافية للضعف لذاته.

ويقول الإمام الغزالي في هذه الصفة: «إذا قيل (قادر) لم يعن له إلا كونه فاعلاً، وهو أن وجوده وجود تفيض عنه المقدورات التي بفيضانها ينتظم الترتيب في الكل على أبلغ وجوه الإمكان في الكمال والحسن»[2].

فالقدرة إذن صفة أزلية قائمة بذاته تفضي الإيجاد أو الإعدام لكل ممكن وفق إرادته ودليلها من القرآن آيات عديدة ورد ذكرها بما يفيد تحقق هذه الصفة في ذات الله. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (38) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (39) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[4].

والدليل العقلي على أن الله سبحانه وتعالى قادر متحقق حكماً باعتبار أن الله قديم أزلي وأن الخلق والكائنات جميعها تدل دلالة واضحة أنها مصنوعة مخلوقة، وبما أن الله قديم أزلي تعين أن تكون القدرة بخلقها وصنعها، مردها لله سبحانه وتعالى.

(1) الغزالي ــ المرجع السابق 176.
(2) الغزالي ــ تهافت الفلاسفة ص166.
(3) سورة يس، الآية: 81.
(4) سورة القيامة، الآية: 36 ــ 40.

5 ـ الاختيار:

إن صفة الاختيار لله جل شأنه محققة حكماً، وهي مستلزمة بالضرورة بتحقق صفات العلم، والإرادة، والقدرة، إذ أن صفة الاختيار أثر من آثار هذه الصفات، أي أن من كان عالماً وقادراً ومريداً، فهو الفاعل المختار، وهي من صفات الواجب الوجود وتعالى الله عن أن تكون أفعاله وتصرفاته في خلقه دون شعور ولا إرادة منه، فضلاً عن أنها لا تستلزم مطلقاً مراعاة تكليف ما، وما هذا الكون وما فيه من نظام مبدع إلاَّ أثر من آثار الواجب الوجود الذي هو أكمل الموجودات وأجلها إطلاقاً، فالنظام الدقيق والتوازن والترابط في هذا الكون، ما هو إلا مظهر لسمو مرتبة المبدع، وتابع لكماله وعظيم شأنه جل جلاله. فهو الخالق له بعلمه الشامل وإرادته المطلقة، مختاراً بمشيئته ما خلق وكوّن، والقرآن الكريم يزخر بالأدلة على مشيئة الله واختياره منها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4].

على أن هذا الاختيار يتم بمشيئة الله سبحانه وتعالى وينفرد بمعرفة أسبابه وحكمته في خلقه لأمر يريده، وأن أبان لنا أحياناً بعضها في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 47.
(2) سورة يوسف، الآية: 21.
(3) سورة يوسف، الآية: 100.
(4) سورة آل عمران، الآية: 73، 74.
(5) سورة الذاريات، الآية: 56.

وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى منزه عن أن يخلق شيئاً دون حكمة وإن تكن خافية علينا. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

فأفعال الله تعالى مستهدفة أغرضها يعلمها هو وإن تكن خافية عن أنظارنا.

6 ـ الوحدة:

إن مقتضيات العقيدة الإسلامية أن الله يتصف بالوحدة، والمراد بالوحدة هي الوحدة ذاتاً، ووصفاً، ووجوداً، وفعلاً.

أما الوحدة الذاتية فقد سبق أن أقمنا الدليل على أن الله جل شأنه منفي عنه التجزئة أو التركيب خارجاً، وعقلاً، فلا مجال للإعادة.

أما عن الوحدة في صفاته سبحانه وتعالى، فالمراد بها أنها صفات ثابتة غير عارضة بالإضافة إليه، وهو ينفرد بها، ولا يساويه أو يشابهه فيها موجود، وهي صفات ليست من مقومات ذاته، إذ ليست ذاته قائمة بغيره، فذاته موجودة وصفاته ملازمة لذاته بلا علة لها، وهو تعالى قائم بالذات قيام الصفات بالموصوفات، وهو قديم لا فاعل له (وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات)[3].

أما الوحدة في الوجود فإن الله سبحانه وتعالى واحد، ولا يجوز فرض عيني واجبي الوجود، فالله سبحانه وتعالى منفرد بوجوب الوجود دون علة، بل هو علة لغيره، ولو تعدد واجب الوجود لكان لكل واحد منهما تعين يختلف عن الآخر بالضرورة، وإلاَّ لما كان هناك معنى للتعدد، فضلاً عن أن التعدد يفيد كثرة الصفات، وتعددها، تبعاً لتعين الذات الواجبة الوجود، كما أن الصفات تختلف باختلاف التعينات، لأن الصفات تتعين بما ثبت لواجب الوجود بالبداهة. وبهذا

---

(1) سورة الإنسان، الآية: 9.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(3) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص23.

تختلف الصفات من علم وإرادة حكماً، باختلاف واجبي الوجود، ويكون لكل واحد منهما صفات مختلفة بين كل منهما، بمعنى أن كل واحد مهما تكون له صفة، من إرادة أو علم متلائمة مع ذاته، بما يؤدي إلى هذا اختلاف الأفعال، تبعاً لاختلاف الصفات، لهذا وجبت صفة الوحدة في أفعاله، باعتبار أن الصفات من علم وإرادة لازمان لذات الواجب الوجود من ذاته، وليست خارجة عنه، فتكون أفعال كل واجب الوجود الصادرة عنه تخالف الآخر، وإذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أن تختلف أفعال كل واحد منهما تبعاً لاختلاف صفاته في علومه وإرادته، إذ لكل منهما سلطته على إيجاد الممكنات تبعاً لعلمه وإرادته، وبهذا فلا يكون هناك مسوّغ أو مبرر لترجيح قدرة أحد واجبي الوجود على الآخر. وعندئذ تتضارب الأفعال بتضارب واختلاف العلوم والإرادة، ويتعالى كل منهما على الآخر، وقد ردّ الله سبحانه وتعالى داحضاً فكرة التعدد بمنطق بديهي غاية في الاقناع والحجة إذاً بالتعدد يستحيل الوفاق. قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

هذا كما أنه لو تعددت الآلهة لكان بتعددها يتعدد إيجاد الممكنات، تبعاً لاختلاف العلوم والإرادات في كل منهم، مما يؤدي إلى أن يكون للشيء الواحد من الممكنات عدة وجودات، وبهذا يستحيل إيجاد ممكن من الممكنات فيختل بذلك نظام الكون ويَفْسُد، ولما كان الكون قائماً على نظام وتوازن وترابط غاية في الدقة بمعنى أن الفساد ممتنع بالبداهة وبالحس والعقل، مما يؤكد انتفاء التعدد، وأن الله سبحانه وتعالى جلَّ شأنه واجب الوجود، واحد في ذاته وصفاته، وإلى هذا يشير الإمام الغزالي، قال: «فواجب الوجود ليس مركباً من أجسام تثبت القوى في أطرافها، فكانت القدرة والإرادة والعلم والذات منه واحداً»[2].

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) الغزالي ـ تهافت الفلاسفة ص167 دار المعارف القاهرة ط4 1966.

هذا، كما أن صفة الوحدة تعني حكماً أنه لا شريك له في أفعاله وتصرفاته، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(1).

3 ـ دليل النظام:

إن النظام سمة من سمات الفعالية والاستمرار في كل شيء، والمراد بالنظام هو الترتيب والتنسيق والاتساق، بحيث يؤدي الشيء المنظم وظيفته على الوجه المتوقع منه، فالساعة والسيارة والحاسب الآلي مثلاً، كل هذه الأشياء لا يمكن أن تقوم بمهمتها إذا تركت أجزاءها متراكمة، ومقوماتها الآلية دون ترتيب أو تنظيم، تبعاً للنظام المعين الذي وضعه المخترع، وكذا الكتابة لا يمكن أن يفهم مدلولها إذا لم تكن الحروف المكونة مرتبة ومنظمة ومترابطة تبعاً لنظام قصده الكاتب، للدلالة به على يد التعبير عن فكره.

هذا بالنسبة إلى هذا الأمور التي تعتبر بسيطة أمام الوجود الكوني وما فيه من مخلوقات، من نبات، وحيوان، وجماد، القائم على نظام في منتهى الدقة والتدبير. فالنظام إذ هو سمة كل شيء، فهو من باب أولى، أن يكون بالنسبة لخالق هذا الكون وما فيه من كائنات دليلاً على وجود الله سبحانه وتعالى. فالنظام الذي أحكم به الخالق هذا الكون، وضعه وصاغه على النحو الذي يقوم بتأدية وظيفته كل مخلوق تبعاً للنظام الذي أعد له، من هذا يتضح لنا أن للنظام عنصران لا يمكن قيامه بدونهما. وهما:

العنصر الأول: مقومات الشيء المنظم وتنظيمه على نحو ما.

العنصر الثاني: المنظم الذي أوجد مقومات الشيء ونظامه.

وبهذا نجد أن كل نظام قائم لا بد له من منظم مدرك لماهية هذا النظام، وترتيبه على الوجه الذي وصفه للشيء، ليؤدي وظيفته وفعاليته تبعاً لهذا النظام، وإذا كان هذا ينطبق على المصنوعات التي قام بصنعها الإنسان وأوجدها لتقوم

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 22.

بمهمتها تبعاً لنظامها الموضوع، فإنه ما من عاقل إذن يستطيع أن ينكر أن النظام دليل وبرهان إلى وجود الموجد له، وإذا كان الأمر كذلك فأي إنسان يستطيع أن ينكر الأنظمة الدقيقة التي تخضع لها جميع الكائنات من كواكب ونباتات وحيوان، وإنسان، تبعاً لماهيتها ووظيفتها المتوخاة وفقاً للنظام الموضوع لها. إذ أي إنسان يستطيع أن يدعي بانه خالقها؟ قطعاً مستحيل، بل إنه ما من أحد من العلماء يستطيع الادعاء باستيعاب حركة هذه الموجودات الكونية، وكل ما توصل إليه العلم في كشوفاته في هذا الكون لا يعدو أن يكون نقطة من بحر، إذ الإنسان لا يزال بعلمه قاصراً عن إدراك كنهها، أو الإحاطة بكافة قوانينها وأنظمتها، على الرغم من تطور التعلم وارتقائه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]

فالأرض التي نعيش عليها، والمرتبطين بها تبعاً لتوفير حاجاتنا فيها، من هواء، وماء، وضوء، ودفء، وطعام، ونبات، وحيوان، جميعها تحكمها قوانين غاية في الدقة والنظام. ولنأخذ مثلاً قانون الجاذبية الذي يربط الأرض بما عليها رابطة التوازن فلولاه لتناثر كل شيء عليها، وكذلك بالنسبة للإنسان المقيم عليها فإن التوازن القائم بينه وبين جاذبية الأرض، تبعاً لمقاومة الجسم وخصائصه التي خلقها الله في الإنسان، لولاها لما استطاع أن يمارس حركته عليها. ومع ذلك فإن قانون الجاذبية الذي يحكم هذا الكون غير واضح لأن القوة الجاذبية بحد ذاتها لا يزال مجهول كنهها حتى اليوم[2]. وقانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها منطقياً أن يؤمنوا بوجود هذا القانون[3].

فالأرض بعدها عن الشمس منظم تبعاً لقانون يحقق التوازن، بحيث لا

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 85.

(2) ألسن هانيك: أسرار الكون ص 206 ترجمة رمضان هدارة، القاهرة مطبعة المعرفة. وقد عرف المؤلف الجاذبية بقوله: إنها قوة تجاذب عامة تؤثر بها جميع الجسيمات المادية بعضها على بعض وهي تتزايد في الأجسام بنسبة تزايد كتلتها.

(3) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ـ بيروت دار البحوث العلمية.

تصطدم أحدهما بالأخرى. «فلو بعدت الأرض عن الشمس ضعف بعدها الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت دورتها حول الشمس في وقت أطول يضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، ولتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض، كما أنه لو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما عليه الآن، لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي ـ إن كانت هناك فصول ـ ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة»(1).

«كما أن دورات الأرض تتدخل في اعتدال الحرارة فدورتها حول نفسها مرة واحدة في كل 24 ساعة، معنى ذلك أن سرعتها /1000/ ميل في الساعة، وهذه السرعة مناسبة لحجمها الآن، أما لو كان حجمها أكثر أو أقل مما هو عليه الآن، لتغيرت سرعتها تبعاً لذلك، ولتغير بذلك مدة الليل والنهار، ولجعلت الحياة فيها مستحيلة(2).

هذه الدقة في خلق الأرض، ومركزها من الشمس والكواكب، وترابطها جميعاً بقوانين تكفل توازنها ودوراتها، ووجود الماء، والهواء، والحرارة، بمقادير مقدرة، كل هذه لا تدع مجالاً للشك، بأن هذا التنظيم دليل على وجود منظم لها، وهو الله سبحانه وتعالى، إذ قال:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(3).

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(4).

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(5).

---

(1) نديم الجسر ـ قصة الإيمان ص320، بيروت 1969.

(2) فرانك ألن ـ مقال في كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص8، ترجمة الدمرداش عبد الحميد سرحان ـ القاهرة (سنة 1968).

(3) سورة الفرقان، الآية: 2.

(4) سورة القمر، الآية: 49.

(5) سورة الرعد، الآية: 8.

وكذا الشمس فقد خلقها الله سبحانه وتعالى ومدها بالطاقة الضوئية والحرارية وسيرها تبعاً لقوانين تمكنها من دورانها في مدارها يترابط وتوازن بحيث لا تتجاوز مدارها، ولا تصطدم بكوكب آخر، فهي تلتزم نظامها دون أن تقترب من الأرض فتحرقها، أو تبتعد عنها فتهلكها تجمداً. قال تعالى مشيراً إلى هذا:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿38﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿39﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [1].

ويقول الإمام محمد عبده في هذا الشأن:

«من أدلة ثبوت العلم الواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان، ووضع كل شيء في موضعه، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الأعيان، كبيرها وصغيرها، علويها وسفليها، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدّر لها، وإلزام كل كوكب بمدار، لو خرج عنه لاختل نظام عالمه، أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره»[2].

وكذا في النباتات المخلوقة والمزودة بأجهزة وخصائص غاية في الدقة أيضاً، بحيث تكفل تغذيتها بمقدار حاجتها، بامتصاص الغذاء والماء، من خلال الأوعية الشعرية، نتيجة قوة الضغط الجذري، وقوة الشد الورقي، إذ تصعد العصارة إلى أعالي الغصون. وكذا عملية امتصاص المادة الخضراء، الموجودة في ورق النباتات لبعض أطياف الشمس وهي تسمى بعملية (التمثيل الكلورفيلي) يقول (لسترجون زمرمان) من علماء التربة والنبات: «من الذين أوجدوا تلك

(1) سورة يس، الآية 39 ـ 40.

(2) محمد عبده، رسالة التوحيد ص20.

القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات ونمو النبات؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وعمقاً وهو: من أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى كيف خلق النبات الأول؟ ثم يجيب عن ذلك بقوله:

نحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا»[1].

هذه النباتات باتيانها ما تحتاج إليه وتزويدها بالأجهزة والأعضاء في مواضعها لتؤدي وظيفتها بكل دقة وعناية هذا النظام فيه الدليل على وجود خالق لها أقامها بضوابط وموازين مذهلة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

وكذا الحيوانات والحشرات بما زودت به من أعضاء لغذائها، ووسائل دفاع لحماية نفسها، بما يكفل استمرارها لما هو مقدر لها، أليس في هذا ما يدل على منظم هذه المخلوقات ومدبرها.

وكذا بالنسبة لخلق الإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلق الجنين من نطفة أو علقة، وعلم حاجته، فأكمل خلقه، فزوده بأعضاء وجوارح من أيدي، وأرجل، وأعين، وآذان، ومعدة، وقلب، وكبد، ورئة، إلى غير ذلك، مما لا غنى عنها في حياته، كالحس، والحركة، والعقل والإرادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً

(1) لسترجون زمرمان: الله يتجلى في عصر العلم ص144، ترجمة الدمرداش عبد الحميد سرحان ـ القاهرة 1968.

(2) سورة الرعد، الآية: 4.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

هذا الخلق الدقيق على أحسن ما يكون تعجز العقول عن إدراك كنهه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[3].

فالنظام القائم في هذا الكون يدل على وجود منظم مبدع، ولا يمكن أن يقوم صدفة، وهذا دليل واضح على وجود الله، وإلى هذا أشار الإمام محمد عبده فقال:

«هذا الصنيع الذي تتفاضل العقول في فهم أسراره، وللوقوف على دقائق حكمه، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، هل يمكن بمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعاً لهذا النظام، وواضعاً لتلك القواعد التي تقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها؟ كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»[4].

ويقول تشارلز داروين:

«يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به خلجة من الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات وتلك النفوس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء، لأن العمى لا يخلق نظاماً ولا يبدع حكمة، وذلك أكبر برهان على وجود الله»[5].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 14

(2) سورة آل عمران، الآية: 6. .

(3) سورة السجدة، الآية: 7.

(4) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص21.

(5) تشارلز داورين (1809 ـ 1882) صاحب نظرية التطور.

ـ نلاحظ مما تقدم أن دليل النظام من أيسر وأوضح الأدلة على وجود الله، وهو يقوم على المشاهدة وإعمال العقل بتفكيره السليم، تبعاً لبديهات مسلم بها، وهذا ما أخذ به القرآن وحض على اعتماده فدليل النظام والتفكير هو من خير الأدلة، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿10﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى إذ خلق العقل للإنسان أداة للمعرفة والعقيدة، خاطب الناس من خلال عقولهم لإعمال حسهم البصري والسمعي، والاستدلال بعقلهم من خلال رؤيتهم للموجودات والظواهر الكونية، وكذا المخلوقات، سواء كانت في أنفسهم أو في غيرهم. على أن هذا الكون وما فيه من نظام قائم لدليل واضح على وجود الله الخالق له.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿20﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿22﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿23﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

---

(1) سورة لقمان، الآية: 10 و11.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 20.
(3) سورة الروم، الآية 22 ـ 24.
(4) سورة الروم، الآية: 46.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

هذه المخلوقات المشاهدة بالحس النظري أو السمعي أو بإعمال العقل بأنظمتها، أليست دليلاً كافياً على وجود الله، ومن يستطيع غير الله القادر على كل شيء أن يخلق هذه الموجودات وكل يجري إلى أجل مسمى؟

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿5﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[2].

هذه الآيات ذكرها الله تعالى ليتفكر بها الناس في دلالتها على الله خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

هذه الدلالات واضحة على أن الله سبحانه وتعالى خلق الموجودات وأقام لها نظاماً يحقق التناسق والتوازن والترابط بما يخولها الأداء لمهمتها بالقدر الذي قدره فأحسن تقديره، ودبر فأحكم تدبيره، وهي دليل على عجز أي قوة أخرى دون الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[4]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿20﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿21﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[5].

---

(1) سورة السجدة، الآية: 27.
(2) سورة الزمر، الآية: 5 ـ 6.
(3) سورة البقرة، الآية: 219.
(4) سورة الحج، الآية: 63.
(5) سورة النحل، الآية: 20 ـ 22.

بهذه الأمثال جميعها أفسح الله عز شأنه المجال للبشر للنظر والاستماع والتأمل والتفكير في آياته في مخلوقات بالسليقة والعقل دون مغالاة أو مكابرة، حيث تؤدي هذه حتماً إلى الاعتماد بوجود الله.

هذه بالنسبة للمحسوسات البصرية أو السمعية، وهناك من الأشياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى لا تقع تحت حس الإنسان وبصره الطبيعي، كالذرة والالكترون فهو عالم خاص في نظامه ودقته وترابطه وتوازنه، فهو يشبه في نظامه نظام المجموعة الشمسية ويقول الفيلسوف الفرنسي (هنري برجسون) عن هذا النظام:

«إن الله موجود في الذرة يبدعها إبداعاً وينظمها تنظيماً» أليس إذن في نظام الالكترون ودورته الدليل والحجة على وجود منظم وخالق لهذا النظام، وهو الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء»[1].

(1) أحمد أمين، التكامل في الإسلام ج2 ص13 ـ 14، 1377هـ.

الفصل الرابع

في صفات العقيدة الإسلامية وأبعادها

تتصف العقيدة الإسلامية بصفات تنفرد بها عن كل عقيدة أخرى وأبرز هذه الصفات تبدو فيما يلي:

1 ـ الشمولية:

تتصف العقيدة الإسلامية بالشمولية، فهي تخاطب الناس جميعاً من منظور إنساني، لتشمل جميع الأمم الإنسانية بأجسادهم ونفوسهم وأرواحهم، دون التمييز، والتفرقة، في الجنس، أو اللون، أو العرق أو العنصر، فهي دعوة أممية، وليست بقومية، أو إقليمية، كما أنها تخاطب الإنسان أينما كان، وفي أي زمان، فهي إذن عقيدة صالحة لكل زمان ومكان، تدعو إلى التساوي أمام الله، فالناس سواء تجاه العقيدة مهما كانت مقومات الإنسان وصفاته، فلا تفرق بين الضعفاء والأقوياء ولا بين الفقراء، والأغنياء، أو الحاكمين أو المحكومين، بمعنى أنها رسالة إنسانية عالمية، منزلة من رب العالمين إلى جميع الناس، قال تعالى مشيراً إلى ذلك في الدعوة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].

(1) سورة الأعراف، الآية: 158.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1].

فالتساوي بالعقيدة إذن هو الأساس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[2].

فالصفة الشمولية إذن قائمة في هذه العقيدة، فهي لا تؤثر طبقة على طبقة أو تميز بين جنس آخر، على أنها لا تنكر المراكز العلمية التي يشجع الاعتراف بها على البحث والتتبع والاستقصاء، لأن الناس بقدراتهم وسعيهم ورزقهم مختلفون، فلا يسوغ إنكار ذلك أو الجحود بهذه المعارف. قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[5].

2 ـ انتفاء الوساطة:

العقيدة الإسلامية تتصف بأنها إيمان بالله مباشرة وهي مجردة عن المراسيم والوساطة، فهي منزهة عن معالم الوثنية كالهيكل، أو الصنم، أو الرمز، أو الأيقونة، أو الوسيط، أو الكاهن، إذ المسلم يتجه بعبادته مباشرة وذاتياً إلى الله سبحانه وتعالى وحده، مجرداً عن الطقوس أو المراسيم والتقاليد، أو الصور، أو التماثيل أو الرقص، أو أي ضرب من ضروب الموسيقى. فالعبادة لله وحده لا شريك له، كما أن عبادة المسلم وفق عقيدته هي عبادة بذاته، يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى في أي مكان، فهو ليس بقطعة من المعبد أو الهيكل. قال تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[6].

---

(1) سورة سبأ، الآية: 28.
(2) سورة الحجرات، الآية: 13.
(3) سورة المجادلة، الآية: 11.
(4) سورة النحل، الآية: 71.
(5) سورة الزمر، الآية: 9.
(6) سورة البقرة، الآية: 115.

كما أن العقيدة دعوة خالصة لله مباشرة، فلا يتوقف قبولها على مشيئة كاهن، أو طاعته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(1).

فكل دعوة إذن إلى غير الله، هي دعوة إلى الباطل، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾(3).

فعقيدة المسلم تقتضي منه القيام بعبادة الله وتوجيهها إليه مباشرة، حتى ولو كان مؤتماً يصلي وراء الإمام. فالإمام لا يرتفع مقامه عن مقام أي مسلم، فهو واحد من المسلمين لا ميزة له في صلاته على غيره، يتساوى في الحقوق والواجبات في عبادته، مع غيره، فهو إذن ليس بوسيط مطلقاً، باعتبار أن العقيدة تساوي بين المسلمين في جميع حقوقهم وواجباتهم تبعاً لمبدأ شخصية العقيدة وتفريد المسؤولية، فالشخص بمجرد أن يسلم يعتبر مسؤولاً لوحده، ومباشرة عن مقتضيات ما تستوجبه هذه العقيدة من عبادة، وأحكام بالنسبة له.

3 ــ الذاتية:

العقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بالله الواجب الوجود بذاته ووحدانيته، لا شريك له، ولا تثليث فيه، منفي عنه التعدد والتجزئه، أو التركيب، مجرد عن الأبوة والبنوة، أو أي صفة من صفاتها، فالعبادة له وحده. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(4).

---

(1) سورة فاطر، الآية: 13 و14.
(2) سورة الحج ، الآية: 62.
(3) سورة يونس ، الآية: 32.
(4) سورة الإخلاص ، الآية: 1 ــ 4.

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

4 ـ التوازن:

العقيدة الإسلامية توازن بين الجانب الروحي والجانب المادي فهي إذن لا تفصل بين الدين والدنيا، بل توجب حقوقاً للجسد والروح والعقل والضمير، وتعطي لكل واحدة حظها من الدنيا والآخرة، فالمسلم إذن لا يجوز له أن ينهك واحدة على حساب أخرى، بل يعطي لنفسه وروحه وجسمه حقها دون إفراط أو تفريط، فلا يجوز له أن يعبد الله ويترك بعض المباحات زهداً منه كالتزوج، أو ترك النوم، أو إنهاك الجسم بالعبادة الدائمة، والانقطاع إليها استمراراً، آناء الليل وأطراف النهار، أو اعتزال العمل، أو اعتزال النساء، ففي كل هذا إهمال الحقوق الجسم، بما لا تقبله الشريعة الإسلامية.

فالتوازن الذي تدعو إليه العقيدة تقتضيه طبيعة الجسم والروح، فالدعوة إذن هي تحرير للنفس من شهواتها، وتهذيب لها بمعان روحية سامية باعتدال، فهي لا تدعو إلى الرهبنة بل تبيح للإنسان بقسط من الطاقة الحيوية، ليعمل في الدنيا لاعلاء كلمة الله، فهي دعوة ترمي إلى تقدم المجتمع بالعقيدة الإسلامية التي تدعو إلى ذلك، وإلى تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة، تبعاً للعقيدة الإسلامية التي يتحقق أيضاً بالعمل بها مصلحة المجتمع.

وإلى جانب هذه الصفات نلاحظ أن العقيدة الإسلامية ذات أبعاد خاصة غير متوفرة في العقائد الأخرى وهي:

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 22.

1 ــ البعد النفسي.

2 ــ البعد الاجتماعي.

3 ــ البعد الميتافيزيقي.

1 ــ عن البعد النفسي:

العقيدة الإسلامية هي عقيدة معنوية تتجسد بعبادات وأفعال ومعاملات، لازمة لزوم الذات في الإنسان، فهي تخاطب العقل والروح، فلها إذن بعد نفسي، لأنها تقوم بدور الصلة بين الذات الإلهية والنفس المسلمة، وتبعث فيها القيم الروحية والإنسان التي تشع في النفس الرضا والإطمئنان، نتيجة الإيمان بالله، والذي بهداه تتم المعاني الروحية للإنسان فتستيقظ عنده بهذا الإيمان، العزة، والكرامة، والعطف، والإشفاق، والعدل، والسرور، والتواضع، واللذة، والشكر، والمحبة. إلى غير ذلك من الصفات، كل هذا نتيجة للعقيدة الإسلامية التي هي مبعث الإيمان بالله، إذ بهذا الإيمان يعتمد الإنسان على الله مبعث كل شيء، فيندفع بذلك نحو القوة والشجاعة فلا يخاف إلاَّ الله، فهو العزيز الجبار المحيي والمميت ذو القوة المتين، فعّال لما يريد، كما لا يتوكل إلاَّ على الله، ولا يسأل إلاَّ الله، فهو الرازق، وهو الخالق، والبارئ، والمصور، اللطيف الخبير العادل.

لهذا يطمئن الإنسان كل الاطمئنان بإيمانه بالله، ويوقظ عنده الوجدان، فترتاح النفس وتسعد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

---

(1) سورة الرعد، الآية: 28.

(2) سورة الأنفال، الآية: 2 ــ 4.

بهذه العقيدة الإسلامية أشار الله إلى البعد النفسي الذي يشع في القلب نتيجة الإيمان بالله إذ يخضع المرء تلقائياً بشعور اختياري لله، مما يبعث في نفسه السعادة والراحة النفسية، باعتباره يعبد الله طوعاً، ويبقى قلبه دائماً معلقاً بالله بين الرغبة فيما عند الله، والرهبة منه، وبين الأمل والرجاء ليرضي الله سبحانه وتعالى ويفوز عنده فوزاً كبيراً، كل هذا بفضل العقيدة الإسلامية المقدسة.

ويقول محمد حب الله بهذا الخصوص:

«وإذا تأملنا في كثير من العقائد وعلى الأخص العقائد الدينية، فإننا نجد العقيدة في الواقع ليست ثمرة لجانب واحد من الجوانب النفسية للإنسان وإنما تتوافر جميعها على تحقيق ذاتية الإنسان وتكوين شخصيته وملء كل فراغات نفسه، بحيث يأمن في حياته شر الصراع النفسي بين قواها المختلفة، وهي بصدد الاختيار وتكوين المعتقد، فيتحقق له عندئذ الرضا والقبول والاطمئنان والانسجام، ويتم له كمال شخصيته وكمال العقيدة معاً»[1].

وهكذا نجد أن العقيدة الإسلامية تحقق فعلاً بعداًنفسياً يملأ القلب والنفس بالسعادة، ولا شك أن هذا يدرك بالعقل، وجهاد النفس في الطاعة بمعرفة الواجب الوجود. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2]

وإذا كانت المعرفة هي حال من أحوال النفس، فإنه بهذه المعرفة تتحقق السعادة النفسية بمعرفة العقيدة، التي هي معرفة الله عزّ وجل، وبالتالي تكون العقيدة سعادة للنفس وقد أشار الإمام الغزالي إلى أهمية النفس في معرفة الله فقال:

«اعلم أن مفتاح معرفة الله هي معرفة النفس. كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾[3]. وقال النبي ﷺ: «من عرف

(1) محمد حب الله ـ الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص268 ـ 269.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 69.
(3) سورة فصلت، الآية: 53.

نفسه فقد عرف ربه»... فالواجب عليك أن تعرف نفسك، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.. إلى أن يقول: اعلم أن النفس مَرْكَبُ القلب، والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلباً للسعادة، وسعادته معرفة ربه عز وجل»[1].

2 ـ عن البعد الاجتماعي:

للعقيدة الإسلامية بعد اجتماعي، إذ تحقق مصلحة المجتمع، من خلال الالتزامات المفروضة على المسلم بمجرد إيمانه، فهي ترمي إلى خلق المجتمع الأمثل لتحقق الرفاهية لأفراده جميعاً، باعتبارها تمس كافة أبعاد المجتمع، وتطرح قيماً عملية إنسانية، إذ هذه العقيدة لا تدع مجالاً للشك لذوي العقول السليمة من اتباعها والتسليم بها، وهي أساس الدين الإسلامي باعتبارها (شرع إلهي يسوق لما فيه صلاح الأمة في معاشها في الحال وفلاحها في المآل)[2].

هذه العقيدة بمضامينها تقيم المجتمع على أساس التعارف، والتعاون، والتحابب، والتكافل، والتضامن، فتدعو إلى التراحم وعمل الخير والابتعاد عن الشر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

كما أنه بهذه العقيدة الإسلامية يتحقق في المجتمع العدل والإنصاف ويعطي كل ذي حقه، فللفقير حق معلوم في مال الغني يقدمه تزكية لأمواله عن طيب ورضا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿24﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[5].

---

(1) الغزالي ـ المنقذ من الضلال ـ ص74 ـ مكتبة الجندي.
(2) الشريف الجرجاني ـ التعريفات ص47 ط1 المطبعة الخيرية، 1306هـ.
(3) سورة النساء، الآية: 124.
(4) سورة النحل، الآية: 97.
(5) سورة المعارج، الآية: 24 و25.

كما أن الشريعة الإسلامية بأحكامها الغراء «أو حيث منح تأمين اجتماعي لغير المسلمين من العاجزين عن الكسب بآفة كالعمى مثلاً، والزَّمن، أو لسبب حائجة مالية تصيب الرجل فيفتقر بعد غنى، كما أن على الحاكم المسلم أن ينظر في أمر المحتاج، فإما أن يكتفي بإعفائه من ضريبة الدفاع وهي الجزية، وإما أن يجري بعد ذلك عليه رزقاً يكفيه وعياله له من بيت مال المسلمين»[1].

وإلى هذا أشار أبو يوسف في كتابه الخراج فقال:

«لا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمي يتصدق عليه، ولا من مقعد.. وإذا كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا إنما هم مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم يؤخذ منهم».

هذا، كما جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة، بالنسبة للمسيحيين: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم»[2] ولا شك أن هذا قمة الضمان الاجتماعي عندما نلاحظ أنه تناول غير المسلمين من العاجزين عن الكسب.

كما أن البعد الاجتماعي في العقيدة الإسلامية يتحقق بالتكافل والمودة بين الرجل والمرأة فكل يتمم الآخر فقد أقام الإسلام علاقتهما على المحبة والمودة والرحمة لتحقيق استمرارية الحياة وفعاليتها بالإنجاب والموجة والسكينة، فقال

---

(1) عبد الفتاح حسن ـ ميثاق الأمم والشعوب في الإسلام ص32، مطابع المكتب الإسلامي بيروت.

(2) عبد الفتاح حسن ـ المرجع السابق ص31 ـ 32.

تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(1).

هذه الأمثلة عن البعد الاجتماعي التي تعكس الصورة الحية للمجتمع الإسلامي المتماسك، الذي يرتكز على حسن التعامل والتكافل والتضامن بفضل العقيدة الإسلامية، التي ترمي بأحكامها إلى الإيثار والتضحية، والرحمة، والتعاون، والبذل، والعطاء في سبيل الحق والخير، لتخلق الضمير الاجتماعي في مجتمع يرتكز على قيم فاضلة، وأسس إنسانية روحانية، تفادياً من أن تسود فيه المادية الشرسة والصراع الاستغلالي حيث تتآكل فيه الأموال بالباطل ويعم فيه الفساد، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿15﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(2).

3 ـ البعد الميتافيزيقي:

للعقيدة الإسلامية بعد ميتافيزيقي باعتبارها تتناول الإيمان بالغيب بالله سبحانه وتعالى، وهو ليس بمادة لأن التجسيم منفي عنه، كما أنه ليس بروح ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(3). فالقرآن لم يحدثنا عن ماهية الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(4).

وقال تعالى مؤكداً على انفراده بذاتيته ولا يمكن لحواسنا إدراك هذه الذاتية: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(5).

---

(1) سورة الروم، الآية: 21.
(2) سورة المائدة، الآية: 15 و16.
(3) سورة الشورى، الآية: 11.
(4) سورة النور، الآية: 35.
(5) سورة الأنعام، الآية: 103.

فالاعتقاد بالذات الإلهية يقتضي أن يكون اعتقاداً يقوم على الإيمان بالغيب، طالما أن الذات الإلهية قوة فاعلة ماثلة في هذا الكون، إذ كل شيء له آية تدل على أنه واحد. هذه القوة العليا الفاعلة هي التي تحقق أغراض البشر، وهي موجودة في كل الوجود.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

هذه القوة العليا منفردة في ذاتيتها، وهي غير محسوسة لأنها غير خاضعة لخواص المادة. بما فيها من قياس من طول، أو عرض، أو عمق أو ثقل. وبالتالي فهي خارج نطاق العلم، وإذا كان العالم غير المحسوس لا يعتمد على المشاهدة والتجربة المقابسة العلمية، باعتباره غير مرئي فليس معنى هذا أننا نستطيع إنكاره، إذ أن هناك مواضيع عديدة تخرج عن نطاق العلم، كالقوة، ومنشأ الشعور والإحساس وحركته، وماهية العقل، والإرادة، وماهية الخير والشر، والظلم والفضيلة، وغير ذلك من القواعد الأخلاقية، جميعها غير محسوسة بذاتها، إنما تدل عليها آثارها، وهي منفعلة بغيرها.

ومن هنا كانت العقيدة بالله إيمان بالغيب، وهو أسمى مراتب الإيمان هذا الإيمان يقتضي منا أن نؤمن بوجود الله وفعاليته دون أن نراه، فرؤية الله مستحيلة على البشر، وعلى الأنبياء، وقد أورد الله سبحانه وتعالى ما حدث لسيدنا موسى عندما طلب رؤية الله. فامتنعت عليه الرؤيا، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2].

فالإيمان بالغيب هو البعد الميتافزيقي للعقيدة الإسلامية والفطرة الإنسانية

---

(1) سورة غافر، الآية: 60.

(2) سورة الإعراف، الآية: 143 و144.

بتوجيه من الله في كتابه العزيز: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1].

فالعجز عن إدراك الذات الإلهية المقدسة عقيدة مقدسة تقر بالإيمان بالغيب، وهو بعد ميتافيزيقي عن الإيمان بوجود الشيء حسياً، لأن الإيمان بالغيب لا يتوقف على الرؤية الحسية، إذ كثير من الظواهر الكونية لا نراها، ولكننا نؤمن بوجودها نتيجة ثبوت فعاليتها، كالطاقة المغنطيسية مثلاً، والطاقة الكهربائية، والأثير، كل هذه نحس بآثارها الواضحة فنقر بها دون أن ندرك ما وراءها، فهي غير مشاهدة بذاتها، كما أن عدم وجود الشيء بذاتيته تحت رؤيتنا أو حسّنا، لا ينفي وجوده تبعاً لمنطق العلم والعقل. فالإنسان على اختلاف ثقافته ومستواه الفكري في الزمان والمكان وفي الماضي والحاضر، كان لا يزال يؤمن بأن وراء كل ظاهرة مادية خلفية غيبية، لا يمكن إدراكها بحواسه وأن الخلاف ليس في أثر الظاهرة، بما في تصور الغيب، وإمكانية النفاذ إليه، ومعرفة كنه حقيقته، ولهذا وجد من يعلن أنه لا يؤمن إلاّ بالمحسوسات الواقعية التي يمكن كشفها بالوسائل المتاحة، وينكر كل ما هو محجوب عنه.

والواقع أن هذا المنطق غير مقبول، فعدم معرفة الشيء، أو الجهل به، لا يقتضي إنكاره، إذ العلم الحديث برهن على أن كثيراً منا نراه موجود، وبرهن على وجوده بالوسائل العلمية المتاحة عن طريق آثاره، لنأخذ جهاز الإذاعة المرئية (التلفزة) مثلاً، هذا الجهاز ينقل إلينا الصوت والصورة من مسافات بعيدة، من محطات الإرسال ومع ذلك هل يمكننا إذا عجزت الإذن عن سماع الصوت من مسافات بعيدة أو عجزت العين عن الرؤية من هذه المسافات، إنكار هذا الصوت والصوة القادمتين من هذه المسافات البعيدة، إن عجز الإنسان عن تلقي أشياء تحجبها المسافات ليس بدليل على عدم وجودها، إذا كانت قدراتنا

(1) سورة الأنعام، الآية: 102 و103.

عاجزة عن ذلك، هذا بالنسبة للغيبيات المادية، فمن باب أولى بالنسبة لعالم الغيب الإلهي، إذ يتم الإيمان بوجوده بدليل النظر إلى آثاره في هذا الكون، وبالإحساس الفطري الإنساني الداخلي.

قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1].

فالإيمان بالغيب لا يشترط دائماً لحدوثه ثبوت الشيء حسياً، فالكون وما فيه من معجزات يدل دلالة واضحة على خالق منظم، فالخفاء الكوني لا نستطيع أن ندرك ماهيته مما توصل الإنسان بعلمه إلى مدارج المعرفة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فهناك إذن لا تزال عوالم مجهولة بالنسبة للإنسان.

من هذا المنطلق كان الإيمان بالغيب أعلى مراتب الإيمان باعتبار أن هذا الإيمان يقوم على التسليم بوجود الله بدلالات أفعاله. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3].

كما رتب الله سبحانه وتعالى ثواباً عظيماً أجراً ومغفرة للمؤمن بالغيب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[6].

فالإيمان بالغيب إذن وإن كان لا يمكن النفاذ إلى كنهه، ولكن الشعور

---

(1) سورة الجن، الآية: 26 و27.
(2) سورة الإسراء، الآية: 85
(3) سورة الذاريات، الآية: 21.
(4) سورة الملك، الآية: 12.
(5) سورة يس، الآية: 11.
(6) سورة ق، الآية: 31 ـ 35.

والإحساس به قائم عند ذوي العقول والنفوس إذ يقول (آينشتاين) وهو من علماء الكون وظواهره، متحدثاً أن شعوره إزاء هذه الغيبيات ما يلي:

«إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني... إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حي كميت.. إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الجمال.. أجمل ما يكون، وهي حكمة، وهو جمال لا تستطيع أن تدركه عقولنا القاصرة، إلاَّ في صور لهما بدائية أولية. وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال في روعته هو جوهر التعبد عند الخلائق».

ويقول أيضاً:

«إن إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام، إن هذا هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله»[1].

ويقول أ. كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمة العلوم بنيويورك:

«إن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم، لتدع مجالاً للاعتقاد بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة، وهذا ضوء يلقي على الخفاء الوسيع الذي يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهرياً، وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام، أسمى أي إلى وجود الخالق».

ويقول أيضاً:

«إننا نقترب فعلاً عن عالم المجهول الشاسع، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية، ولقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره ولا يزال الإنسان يشعر بوجود ما يسميه بالروح، وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ويشعر بغريزته أنها خالدة»[2].

---

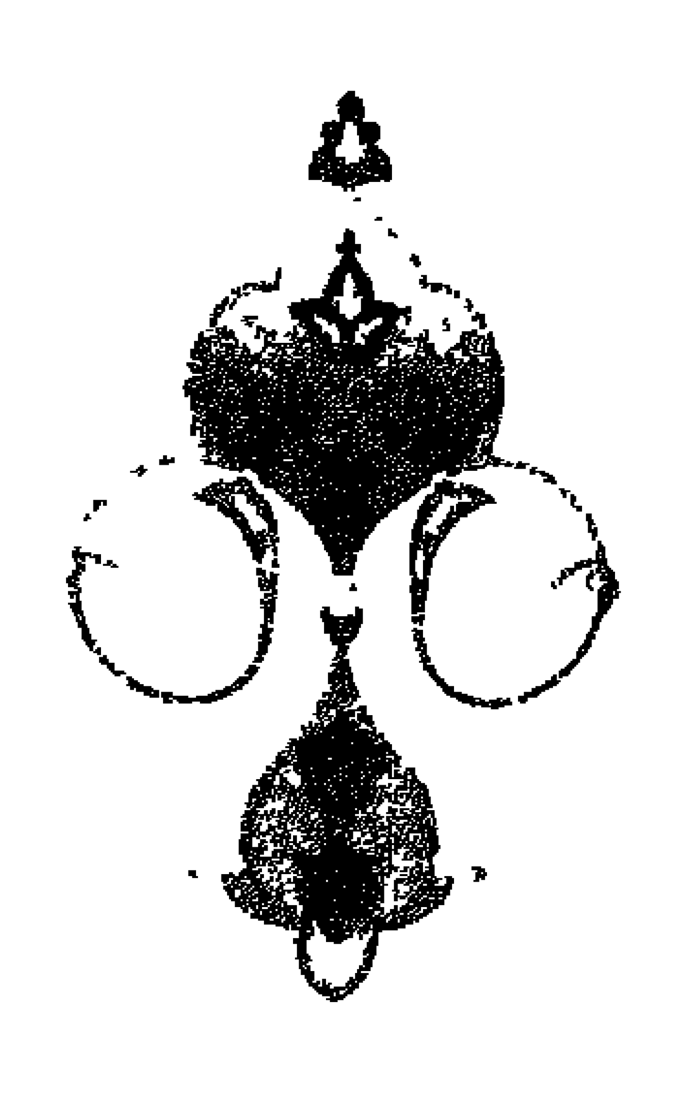
(1) أحمد زكي ـ مع الله في السماء.

(2) محمود صالح الفلكي ـ العلم يدعو إلى الإيمان.

وهكذا نجد أن الفطرة الإنسانية تدعو إلى الإيمان بالغيب بوجود إله متجلي على الكون، ولا شك أن العقيدة بالغيب لها آثارها على الإنسان فهي:

1 ـ تحقق الطمأنينة، فلا يخشى المرء أحداً طالما أنه مؤمن بالغيب، فهو مؤمن بالجنة والنار والثواب والعقاب، لهذا ينتظم سلوكه تبعاً لذلك مع الله في عبادته، ومع الناس في معاملته، لأنه يعلم أنه لم يخلق عبثاً، بل أنه مساءل من جميع تصرفاته وسلوكيته، فيسعى بهذا لتحقيق الخير إذ في هذا ما يرضي الله وينال ثوابه.

2 ـ إن البعد الميتافيزيقي للعقيدة يقتضي الإيمان بالقدر وبالبعث، والحساب، فيبتعد بذلك المرء عن الشهوات والفساد ويتفانى في سبيل الله، والقيم الإنسانية والدينية، ولا يخشى مغبة الحياة فالموت والحياة بقدر من الله.



الباب الثالث

مضمون العقيدة الإسلامية

❖ الإيمان

الإيمان بمفهومه اللغوي هو التصديق، ومحله القلب ويتم التعبير عنه باللسان. قال تعالى حكاية عن أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1] أي لست بمصدق. أما في المفهوم الشرعي فهو التصديق بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره. ومن الجدير بالذكر أن نفرق بين الإيمان، والإسلام.

فالإسلام هو الاستسلام والانقياد والخضوع والطاعة لله تعالى والعمل بما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فالإسلام إذن لا يتأتى إلاّ بالإيمان. ومن هنا كان الإسلام أعم، والإيمان أخص وهو أشرف أجزاء الإسلام. وعلى هذا نلاحظ أن الإسلام يجمع الإيمان والعمل بأوامر الله وطاعته، فهو شرع الله سائق لذوي العقول السليمة، إلى ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

هذا وقد حدد الله سبحانه وتعالى مفهوم الإيمان ومدلوله في كتابه العزيز بعدة آيات، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ

(1) سورة يوسف، الآية: 17.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[3].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال:

«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[4].

يتضح لنا مما تقدم، أن الإيمان هو أساس العقيدة الإسلامية، وهذا الإيمان لا يقوم إلا بتحقيق عناصره التي ذكرها القرآن الكريم، وهي أركان ستة فيمن جحد بها كان من الكافرين.

وسنحاول أن نشرح كل ركن من هذه الأركان في الفصول التالية:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 285.

(2) سورة النساء، الآية: 136.

(3) سورة البقرة، الآية: 177.

(4) يسلم ـ صحيح مسلم بشرح النووي ج ص157.

الفصل الأول

الإيمـان بالله

يعتبر الإيمان هو الركن الأساسي في العقيدة الإسلامية، وهو المنهاج الذي يتبعه المؤمن للوصول إلى الغاية المبتغاة من هذا الإيمان، وذلك عن طريق المعرفة اليقينية للذات الإلهية، وما تقتضيه هذه المعرفة من التزامات، فالإيمان بفحواه وحقيقته هو التصديق والاعتقاد اليقيني بمعنى وجوب السلوك الملزم بمقتضى الإيمان بالله تعالى بربوبيته، وألوهيته، ووحدانيته، وبطاعته، وعبادته، فيؤمن الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى واحد متفرد بالخلق والتدبير، لا يشاركه في خلقه وسلطته وعزته أحد، وأنه جل شأنه هو الفعال المتصرف، وهو رب كل شيء، مالكه، وخالقه، ومنفرد باستحقاق العبادة والتقديس، ولا يستعان إلا به، ولا يخضع إلا إليه، ولا يماثله في أسمائه وصفاته أحد، وقد جعل الإسلام مفتاح الإيمان النطق بالشهادة، والتي يدخل الإنسان الناطق بها دين الإسلام، وذلك بقوله: (أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله) «هذه الشهادة تتضمن كمال العقيدة في الله من جهتى الربوبية، الخلق والتربية، والالوهية، والعبادة»[1].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(1) محمود شلتوت ـ الإسلام عقيدة وشريعة ص18، دار الشروق ط10، 1980.

«هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله»[1].

فالشهادة برسالة محمد ﷺ تعني الإيمان بوحدانية الله، من هذا المنظور كانت الشهادة التصديق بكمال العقيدة وبالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[2].

وعلى هذا نجد أن كل من شهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله مخلصاً في قلبه، فإنه يكون قد أتى عملاً مصدقاً لما وقر في قلبه، ويكون بذلك قد آمن وأسلم.

فالإيمان بالمضمون والتوصيف المذكور، يعني توحيد الله في ألوهيته وربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا ما سنحاول شرحه.

❖ توحيد الربوبية

حدد القرآن الكريم مفهوم الربوبية، بما أفاض به سبحانه وتعالى من آيات تحقق هذا المعنى، على وجه صريح لا يقبل الغموض أو الشك في مفهومه. فالربوبية تعني المالك والخالق والمدبر[3]، والربوبية المقصودة في القرآن، هي أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، والمدبر، والمتصرف، ولا أحد سواه يتمتع بهذه الصفة، وعنها ينبثق معنى الواحدانية فمن كان رباً كان واحداً، فالربوبية، إذن تعني انفراد الخالق وحده في الخلق ولا رب سواه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[4].

---

(1) البخاري ج1 ص32، 139.
(2) سورة البقرة، الآية: 285.
(3) مصباح المنير.
(4) سورة الرعد، الآية: 16.

فالإيمان بربوبية الإله عز شأنه معناه الإيمان بكل ما يتعلق بالمالك المدبر المتصرف بالملك، تغييراً وتيسيراً، ونقصاً وزيادة، فهو المحيي وهو المميت، والفعال لما يريد، وهو النافع والضار، والمجيب للدعاء، والقادر، والمعطي، والنافع، وجميع هذه الخصائص، تنبعث من مفهوم قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(1).

فأول مقتضى الإيمان بالربوبية إذن بوحدة الله، أي أن الله واحد منفرد في ذاته لا شريك له في خلقه وملكه، وسلطانه وعزته، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قال تعالى مقرراً ومعلناً وداعياً إلى وحدانيته:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(3).

وبما أن الربوبية تتضمن معنى توحيد الله سبحانه وتعالى، بمقتضى خلقه للإنسان وتدبيره لهذا الكون وما فيه، فإنه من الطبيعي يتوجه الإنسان إليه بالعبادة، وأن يقوم بها وفقاً لمتطلباتها بما أنزله الله على عباده، وما تتطلبه هذه العبادة لله من الدعاء، والحمد والشكر، والذكر، والاستسلام والولاية.

أما في نطاق العبادة:

فإن الإنسان الذي خلقه الله وهيأ له النعم العديدة التي لا تحصى والمسخرة له، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾(4) فمن الفطرة والمنطق البديهي

(1) سورة الأعراف، الآية: 54.
(2) سورة الإخلاص، الآية: 1 ـ 4.
(3) سورة الأنعام، الآية: 162 ـ 164.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 34.

أن لا يتجه الإنسان إلاّ نحو خالقه الذي خلقه وانعم عليه، ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].

أما في نطاق الدعاء:

فإن الله سبحان وتعالى القادر على كل شيء، وهو الرزاق، والمعطي، والمانع، والشافي، والحافظ، والمتجلي على عباده في جميع أفعالهم وتصرفاتهم وهو الغفور الرحيم، وهو القاهر فوق عباده، ذو القوة المتين فعال لما يريد هذه الصفات التي تليق بمقام الله فمن البديهي أن يتجه الإنسان إليه تضرعاً وخفية.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5].

أما في نطاق الحمد والشكر والذكر:

إن الربوبية لله خالق السموات والأرض، القيوم والحافظ لنظامها وترابطها وتوازنها ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[6] وهم المنعم على عباده.

---

(1) سورة يس، الآية: 21.
(2) سورة البقرة، الآية: 21 و22.
(3) سورة الأنعام، الآية: 102.
(4) سورة غافر، الآية: 60.
(5) سورة الأعراف، الآية: 54 ـ 55.
(6) سورة يوسف، الآية: 64.

وتقتضي هذه الربوبية عدلاً وعقلاً الحمد لله والشكر. قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

ويبدو أن أهمية الحمد كبيرة عند الله سبحانه وتعالى فالمسلم في صلواته الخمس يتلو في كل ركعة يصليها فاتحة الكتاب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾[2].

وقال تعالى في الترغيب في الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3] إذ من مقتضيات الإنصاف والعدل والإقرار بالجميل والشكر، فليس من العدل إنكار النعم وجحودها. قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4].

أما في نطاق الاستسلام:

فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالانقياد إليه جلّ شأنه وهو ما يفيد التسليم بمعناه العام في القلب واللسان والجوارح، فكل تصديق بالقلب هو تسليم وترك للإباء والجحود، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

أما في نطاق الولاية:

فالله سبحانه وتعالى خالق الكون، هو الرب الذي يستحق العبادة، والولاية، ومن الجحود والكفر أن يتخذ الإنسان ولياً غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[6].

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 36.
(2) سورة الفاتحة، الآية: 2.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 7.
(4) سورة البقرة، الآية: 152.
(5) سورة الأنعام، الآية: 71.
(6) سورة الأنعام، الآية: 14.

وهكذا نجد أن مفهوم الربوبية والإيمان بها، يقتضي التوحيد به، فالإقرار أو الإيمان بأن الله خلق السموات، والأرض لا يكفي إذا لم يقترن هذا الإيمان بألوهيّة الله وبتوحيده دون الإشراك بعبادته أحداً. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] فإيمانهم بالله وهم مشركون، وقولهم إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

وهكذا نجد أن الإيمان بربوبية الله وخلقه للكون غير كافية إذا لم يقرن الإيمان بهذه الربوبية، بوحدانية الله عز وجل وعبادته لوحده دون غيره.

❖ توحيد الألوهية

إن مضمون األوهية هو توحيد الذات الإلهية، أي الإيمان بأن الله عز شأنه واحد، وهو الحق المعبود، وإليه يخضع الإنسان ويتجه بالعبادة نحوه، لأن العبادة بمفهومها هي التعبير عن الطاعة وحب الانقياد والخضوع لله عز شأنه، (وهي من كمال الحب مع كمال الخضوع)[4]. فالمؤمن بالله، يقتضي إيمانه توحيد الله في ألوهيته، وذلك بالاتجاه إليه في جميع عباداته، وتقديسه وحبه، وتفضيل عبادته على كل شيء في الدنيا، فالله وحده يستحق الطاعة، ولا طاعة لسواه، وعلى الأخص إذا تضاربت طاعته مع الطاعة لغيره.

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» والطاعة بعمومها تشمل كل أنواع العبادات التي تقتضيها توحيد الألوهية فعلية كانت من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، أو قوليه من دعاء، ورجاء، واسترحام،

(1) سورة يوسف، الآية: 106.
(2) الطبري ج16 ص287.
(3) سورة يونس، الآية: 31.
(4) شرح قصيدة ابن القيم ـ أحمد بن إبراهيم الشرفي ج2 ص259، المكتب الإسلام ط1 1962.

ومناجاة ونذر واستغفار. على هذا لا يسوغ للمسلم إلاَّ أن يكون مطيعاً لله في جميع أوامره ونواهيه، ومن الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ قوله:

«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلاَّ أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1]. فالطاعة إذ هي من مقتضيات توحيد الألوهية بيد أنه لا يكفي القول (لا إله إلاَّ الله) فالإقرار بالربوبية يجب أن يتضمن جميع أنواع التوحيد (والتوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين)[2].

هذا، كما أن الطاعة لله تستلزم وجوب الإخلاص له من دون الناس جميعاً كما تستوجب معانٍ وأفعالاً سامية منها:

1 ـ الإخلاص في حب الله وعبادته:

هذا الإخلاص يتطلب أن لا يشرك بحبه وعبادته لله أحداً، ولا يتخذ من دونه انداداً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3]. كما أنه من مقتضى هذا الإخلاص أن يكون حب الله سبحانه وتعالى متقدماً على كل شيء من أعراض الدنيا من مال وبنين، إذ حب الله والإخلاص له فوق كل قيمة مهما كانت، وهذا طبيعي، فإذا كان الله هو الموجد والخالق لكل شيء، فيمن البديهي أن لا يزاحمه أحد في مرتبة الحب والإخلاص، لا من الابناء أو الآباء أو الأخوات، أو الأزواج أو العشيرة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4].

---

(1) رواه مسلم، ابن حزم ـ المحلى ج1 ص32.

(2) ابن تيمية ـ مجموعة رسائل ص261.

(3) سورة البقرة، الآية ـ 165.

(4) سورة التوبة، الآية: 24.

2 ـ الرغبة والرهبة:

المؤمن لا يرغب إلا فميا عند الله، وهذه الرغبة ضرب من ضروب المحبة (ارغب فيما عند الله يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس). فالله وحده هو المقصود، وهو المعطي، والمتفضل، والرازق، وهو الغفور الرحيم، وهو النافع، بهذه الصفات يرغب المرء إلى الله بالدعاء والمناجاة، رغبة في تحقيق ما يطلبه من الله القادر على كل شيء. كما أن الله سبحانه وحده الذي ترهبه عباده ومخلوقاته، قال تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وإذا كان توحيد الألوهية يقتضي معرفة العلم بالإيمان فإن مقتضى هذا العلم معرفة مضمون الألوهية وما تقتضيه من توحيد، وفعل، وترك.

أما التوحيد:

فهو ما يستوجب توحيد الألوهية والإخلاص لله، والنية بالأعمال، والتوبة إلى الله، والخوف من الله، والرجاء من الله، والتوكل على الله، والتفويض إلى الله، والرضا بقضاء الله، والصبر على قدر الله، كل ذلك يتعلق بالله وفي سبيل الله، وهذا من مقتضى التوحيد بألوهيته أن ينفي المرء عن الله سبحانه وتعالى ما لا يليق به من صفات خلقه، والابتعاد عن كل دواعي الشر من حسد، أو كبرياء، أو نفاق، أو رياء.

أما الفعل:

فإن معرفة توحيد الألوهية تقتضي من المؤمن القيام بالفرائض البدنية من طهارة، وصلاة، وصوم، وكذا القيام بالفرائض المالية، من زكاة، وكفارات،

---

(1) سورة النحل، الآية: 51.
(2) سورة يونس، الآية: 107.

ونفقات، وصدقات، والقيام أيضاً بالفرائض التي لا تتحقق إلاَّ بالبدن والمال كالحج والجهاد.

أما الترك:

فإنه من مقتضى توحيد الألوهية معرفة الله والعلم به، بأنه واحد لا شريك له، إذ الشرك به كفر يتناقض مع توحيد الألوهية، مما يتعين ترك كل ما يناقض مفهوم التوحيد بالله والابتعاد عن الشرك به كما يتعين ترك المعاصي ظاهراً وباطناً، وهكذا نجد أن العلم والمعرفة والألوهية يقتضي توحيدها بمضمونها وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وهكذا نجد أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لله وحده لا شريك له، ومن أشرك بالله فقد كفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[1].

وهكذا نجد أن توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية في الإله من مقتضاها تقرير الوحدانية الشاملة، سواء في نطاق الربوبية، أو في نطاق الألوهية، فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف، ولا معول ولا مسؤول سواه، وقد أنكر القرآن تعدد الآلهة والتثليث وعبادة الخلق كالشمس أو القمر أو الأصنام. وأفاض بآيات عدة بهذا الخصوص كما أفاض في بيان خصائص الألوهية وأبعادها وقدرتها وسلطانها:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[3]

(1) سورة النساء، الآية: 48.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 38.

(3) سورة إبراهيم، الآية 40 و41.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1].

فالقرآن أورد كثيراً من الآيات تحدد معنى الربوبية، ومعنى الألوهية ومع ذلك «كثيراً ما يستدل بوحدانية الربوبية التي تشهد بها الفطرة، ويعترف بها الإنسان في كثير من حالاته على وحدانية الألوهية»[2] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[4].

❖ في التوحيد بأسماء الله وصفاته

من مقتضيات الإيمان بالله إلى جانب توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية الإيمان بصفات الكمال لله سبحانه، التي جاء بها الشرع، وتصديقاً لم أخبر به دون البحث في كنهها، أو ماهية هذه الصفات، هل هي قبل الله أم بعده؟ وهل هي فيه أم مجردة عنه، وهل هي عرض أم جوهر، فصفات الله لم يصل العقل إلى إثبات شيء عن كيفية اتصافه ببعض صفاته، فهي مجهولة، لهذا فيقتضي عدم التعرض للحقيقة والماهية في الذات، أو الصفات، لأن هذا «تطاول إلى ما لا يبلغه العقل البشري من جهة، وهو عبث ومهلكة، لأنه سعي إلى ما لا يدرك، ومهلكه، لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره»[5].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ

---

(1) سورة قريش، الآية 3 و4.

(2) محمد شلتوت ـ الإسلام عقيدة وشريعة ص27.

(3) سورة البقرة، الآية: 21 و22.

(4) سورة النحل، الآية: 20 ـ 22.

(5) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص27.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

فالبحث في صفات الله وأسمائه هل هي توفيقية أو قياسية؟ وما هي متعلقات هذه الصفات؟ وهل المسمى عين الاسم أو غيره؟ وهل تتشبه بصفات المخلوقين؟ كل هذا منهي عنه، لاستحالة الوصول إلى كنهها، وهي أسئلة غير مجدية، لعجزنا عن إدراك حقيقة الذات المقدسة وصفاته، إنما ما نراه من آثاره، وما نحس به داخلياً بفطرة الإحساس الإنساني الداخلي، إنما هو برهان على سموّ ألوهيته وعلو صفاته، وهي عقيدة من عقائد الإيمان بالله، إذ العقل عاجز عن التخطي إلى ما وراء الكون، أو معرفة كنه الذات الإلهية وصفاته، وكل ما هو مطلوب أن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال ومنزّه عن جميع صفات النقص، تبعاً لما أورده الله سبحانه من صفات وأسماء لنفسه، والواردة في الكتاب، والسنة. دون تحريف أو تأويل أو تشبه أو بحث في كنهها.

فالله سبحانه وتعالى موجود، ومتصف بالعلم، والإرادة، والقدرة، وبالحياة، وبالسمع، وبالبصر، وبالجمال، وبالحكمة. وهذا واضح فيما خلقه الله في هذا الكون، فهو دليل على أنه قادر وعالم بأجمع معاني العلم والقدرة، إذ لا يمكن لهذا العالم إلاّ أن يكون مخلوقاً عن علم واسع، وقدرة عظمى، محيطة بكل شيء، وعلى هذا فالعقيدة الإسلامية توجب علينا أن نؤمن بوجود الله وصفاته وما أعلمنا الله به في قرآنه، من صفات متعددة، في كثير من الآيات. قال تعالى في وصف نفسه:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 102 و103.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

ويشير الإمام محمد عبده إلى عدم جواز البحث في كنه الله وصفاته فيقول:

«فالذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات، أزلي، أبدي، حي، عالم، مريد، قادر، متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته، وفي صنع خلقه، وإنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق اسمائها عليه، أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم ومن معاني الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها وتفرقت فيه المذاهب. مما لا يجوز الخوض فيه، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة، ضعف في العقل وتغرير بالشرع، فما علينا إلاّ الوقوف عندما تبلغه عقولنا»[2].

وعلى هذا نستطيع أن نخلص إلى أن توحيد أسماء الله وصفاته تقتضي بطبيعتها الإيمان بما يلي:

1 ـ تنزيه صفات الله وأسمائه عن النقص:

إن الله سبحانه وتعالى منزه بذاته وصفاته واسمائه عن مشابهته لخلقه، في ذواتهم وأسمائهم وصفاتهم، فمقتضى التوحيد بصفاته أن يؤمن المسلم أن الله سبحانه وتعالى منزه عن أن تكون له زوجة، أو ولد، أو كفؤ، أو ظهير، وهو منزّه عن النعاس، والنوم والتعب، والموت، والجهل، والظلم، أو التحيز، إذ كل هذه الصفات تتناقض مع صفات الكمال التي اتصف بها الله جلّ جلاله. فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. «فالله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته

---

(1) سورة الحشر، الآية: 22 ـ 24.

(2) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص27.

وحسنى أسمائه وعليّ صفاته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبّه به وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق»[1]. وقد أشار إلى هذا الخصوص ابن تيمية فقال:

«من الإيمان بالله ما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ندّ له»[2].

2 ـ ثبوت صفات الله وأسمائه:

إن صفات الله وأسمائه وردت في القرآن الكريم أو في السنة، ومقتضى ذلك أن الصفات التي وصف الله بها نفسه لا يجوز تجاوزها إلى صفات أخرى فالله أعلم بصفاته وأسمائه التي تليق بكمال شأنه وعظمته. قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[3].

وإلى هذا أشار الإمام أحمد بن حنبل فقال:

«لا يوصف الله إلاّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث»[4].

وخلاصة القول إنه من غير الجائز تشبيه الله بِخَلْقِهِ أو الجحود بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، لأن وصف الله ووصف الرسول منزه عن

(1) محمد بن أحمد الأنصاري ـ الجامع لأحام القرآن (تفسير القرطبي) ج16 ص8، ط دار الكتب المصرية.
(2) ابن تيميمة ـ العقيدة الواسطية ص20 ـ 25.
(3) سورة البقرة، الآية: 140.
(4) ابن تيمية ـ العقيدة الواسطية، شرح محمد خليل هراس ص21 ط1 1386هـ.

التشبيه والتمثيل، «فمن الإيمان إذن توحيد الله بصفاته وأسمائه وفقاً لما ورد في الكتاب والسنة فلا يسوغ للمؤمن أن يدعو ربه أو يناجيه بغير ما ذكر». قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أسماء الله الحسنى وصفاته وقدرته بكل ما يليق بكماله وجلال قدره وعظيم شأنه، والتي تدل على سمو ذاته ورحمته وفضله، بحيث يدرك الإنسان بما يشاهده ويحس به في هذا الكون أثر هذه الصفات ودلالتها على تحقيق معانيها في هذا الوجود، ومن هذه الأسماء والصفات:

الواحد، الأحد، الصمد، القدوس، الحي، الغني، العليم، القدير، السميع، البصير، الأول، الآخر، الخالق، البارئ، المصور، البديع، القاهر، الولي، الحافظ، رب رحمان، رحيم، رؤوف، ودود، لطيف، خبير، حليم، رازق، وهاب.

بهذه الأسماء والصفات يناجي المسلم ربه وهي طريق دعواه وذكره وتقربه لله جل وعلا، كما أن هذه الأسماء والصفات مفاتيح الدعوة إلى الله الجامع لكمال الألوهية، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

3 ـ في عدم جواز السؤال والبحث في كنه صفات الله وأسمائه:

لا يسوغ للمؤمن أن يبحث أو يسأل عن كنه صفات الله وأسمائه فيسأل كيف سمعه؟ أو كيف بصره؟ أو كيف تكلمه؟ أو كيف استواءه على العرش؟ إن العقل البشري عاجز عن إدراك ذلك، لأن معرفة الصفات تتوقف على معرفة الموصوف، أي معرفة الذات، ومعرفة كنه الذات محال، وبالتالي فمعرفة كنه

(1) سورة الأعراف، الآية: 180.
(2) سورة الإسراء، الآية: 110.

صفات الله تعالى محال أيضاً، وما دام المؤمن مقر بوجود الله عز وجل وهو حقيقة ثابتة واجبة الوجود، فمن موجبات هذا الإيمان ثبوت صفات الكمال لله تعالى، فالسمع والبصر، والكلام والاستواء كلها صفات ثابتة، وهي من صفات الكمال التي لا يشابهه فيها أحد من مخلوقاته.

في أنواع صفات الله عز وجل:

حدد الكتاب والسنة أنواع صفات الله جل شأنه بنوعين:

النوع الأول: صفات تتعلق بذات الله سبحانه وتعالى. وهي صفات لا تنفك عنه ومن هذه الصفات، العلم، والحياة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والقدم، والملك، والعظمة، والكبرياء والعلو، والغنى، والرحمة، والحكمة وما إلى ذلك وقد سبق أن شرحنا بعضها.

النوع الثاني: صفات تتعلق بفعل الله سبحانه وتعالى وهي صفات تتعلق بإرادته ومشيئته، بالفعل كالاستواء على العرش.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1] ـ والنزول، والمجيء، والعجب، والضحك، والرضا، والحب، والكره، والسخط، والفرح، والغضب، والمكر، والكيد، والمقت. كل هذه الصفات الثابتة بمعانيها لله جل جلاله، أوردها الله تعالى ورسوله ﷺ بما يليق بكمال الله تعالى المنزه عن التحريف والتعطيل والتكييف والأقيسة والتشبيه، والتمثيل فسبحانه وتعالى له المثل الأعلى، لا يشركه في خلقه وصفاته ولا يماثله أحد. قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وقد أشار الإمام الشافعي إلى وجوب الإيمان وصفاته بما أنزله وأراده بالإيمان برسول الله وبما جاء به:

---

(1) وردت في كتاب الله صفة الاستواء في سبع مواضع، في سورة الرحمن، والأعراف، ويونس، والرعد، والفرقان، والسجدة، والحديد.

(2) سورة النحل، الآية: 74.

«آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ».

في معاني أسماء الله سبحانه وتعالى:

إن أسماء الله تعالى التي وردت في الكتاب والسنة لها مدلولاتها فلكل اسم معنى يدل على صفة من صفات الله تعالى، كالعليم، والسميع، والبصير، القدير.

فالعليم مشتق من العلم، والمراد به أن الله سبحانه عالم بجميع المعلومات، محيط بكل ما يجري في الأرض إلى أعلى السموات، عالم بما كان وما يكون من ظاهر أو مكنون، ويعلم ذلك بنفسه وبذاته.

والسميع مشتق من السمع، فسبحانه وتعالى لا تخفى عنه الأصوات ولا يعزب عن سمعه مسموع.

والرحيم دلالة على ان الله سبحانه ذو رحمة يرحم من يشاء. وعندما نقول غفور، أي أن يغفر لمن يشاء ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

هذه الأسماء نعوت لله عز وجل تدل على معانيها، وجميعها أسماء وأوصاف مدح للذات سبحانه وتعالى، وقد سميت بالأسماء الحسنى لأنها تدل على أحسن مسمى وأشرف مدلول.

وإن عدد الأسماء الحسنى تسعة وتسعون اسماً، كما هو ثابت بالنص عنها، وبما جاء في الحديث، قال رسول الله ﷺ:

«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر»[2].

على أن هذا العدد لم يكن وارداً على سبيل الحصر في هذا العدد فقط،

---

(1) سورة النساء، الآية: 48.

(2) النووي ـ شرح صحيح مسلم ج17 ص5.

بل المراد ذكرها وإحصاؤها وهذا إخبار للإحصاء لا إخبار بحصر الأسماء[1]، والدليل على أن هناك أسماء لم يعلمنا بها الله، وهي في عالم الغيب ما ورد في دعاء رسول الله ﷺ إذ قال:

«اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن امتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني، وذهاب غمي، إلاّ أذهب الله عنه همه، وأبدله مكان همه فرحاً. قالوا: يا رسول الله ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[2].

فأسماء الله الحسنى إذ هي مفاتيح الدعاء فعلى المسلم أن يتفهم ويتفكر مدلولها، ويقدّس مسماها، فهي تعليم للإنسان وتوجيه له بما تقتضي معانيها من خير، وبما تحقق للإنسان من اطمئنان وراحة نفسية، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال في شأنها:

من حفظها متفكراً في مدلولها، معتبراً معانيها، عاملاً بمقتضاها، مقدساً لمسماها، داخل الجنة[3].

في ثبوت التوحيد بأسماء الله وصفاته:

ورد في القرآن الكريم إلى جانب آيات العقيدة وآيات الأحكام والمعاملات، آيات تعتبر أدلة ثابتة على التوحيد بأسماء الله وصفاته، ونعرض على سبيل المثال سورة الإخلاص: فهي الجامعة في توحيد أسماء الله وصفاته، وقد أخبر الرسول ﷺ، بأَنها تعدل ثلث القرآن باعتبارها جمعت كمال الله

(1) أحمد بن حسن البيهقي ـ الأسماء والصفات ص6، مطبعة السعادة.

(2) أحمد بن حسن البيهقي ص6، 7، مطبعة دار السعادة.

(3) النووي ـ شرح صحيح مسلم ج17 ص5، 6 وأحمد بن حجر العسقلاني ـ فتح الباري بشرح البخاري ج13 ص322.

سبحانه، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿1﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿2﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿3﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1].

نلاحظ في هذه السورة أن كل اسم من اسماء الله تعالى يفيد الكمال والجلال لله عز وجل، وينفي صفات النقص عنه، فهي سورة جامعة رائعة تفيد التوحيد بصفات الله وأسمائه. ويقول ابن القيم الجوزية في شأنها ما يلي:

«فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، ونفي الكفر، المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي»[2].

---

(1) سورة الإخلاص، الآية: 1 ـ 4.

(2) ابن قيم الجوزية ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ج1 ص81 ـ 82، المطبعة المصرية.

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

الركن الثاني من الإيمان هو الإيمان بالملائكة، وهو التصديق بوجودهم، وإنهم من خلق الله، وليس لهم وجود مادي ندركهم بالحواس، لأن الإيمان بهم يدخل في شمول الإيمان بالغيبيات، لهذا لا يسوغ لنا أن نبحث عن كيفية خلقهم، أو ماهيتهم، فنجري بذلك وراء خيالات وتصورات لا طائل لها، ولم يقم عليها دليل، إذ أن إدراك حقيقتهم مما يعجز عنه العقل، فيستحيل التعرف عليهم عقلاً أو حساً.. وكل ما هو مطلوب بفحوى إيماننا بهم، أن نؤمن بوجودهم تبعاً لما أخبرنا به القرآن، وأمرنا به رسول الله ﷺ، وفي الحدود التي أعلمنا بها من صفاتهم ووظائفهم:

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(2).

وفي حديث جبريل عليه السلام عندما جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 285.

(2) سورة البقرة، الآية: 177.

الإسلام والإيمان، والإحسان، أجابه الرسول ﷺ عن الإيمان فقال:

«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

فوجود الملائكة إذن مسلم به بإخبار القرآن وأخبار الرسول ﷺ.

هذا ويبدو استنتاجاً أنهم خلقوا قبل آدم عليه السلام بدليل النص القرآني.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

هذا الوجود للملائكة، لا يعني أنهم من صنف البشر، إذ ليس لهم من صفات البشر الحيوانية شيء، فهم مطهرون عن الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية التي يتصف بها ابن آدم[3].

ويبدو أنهم مخلوقات من نور كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[4].

وبما أن إيماننا بوجود الملائكة مرده إلى ما أخبرنا به القرآن، فمن المنطق عقلاً أن نؤمن بالأعمال والوظائف المخصصون لها، في نطاق ما ذكره القرآن الكريم فهم موكلون بتصرفات معينة بأمر الله، ومطيعون له، ولا يعصون له أمراً قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[5].

---

(1) رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ـ صحيح مسلم بشرح النووي ج1 ص157. وأخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه. البخاري مع فتح الباري ج1 ص96، 97.

(2) سورة البقرة، الآية: 30.

(3) سيد سابق ـ العقائد الإسلامية ص111، وفتح الباري ج6 ث232.

(4) أخرجه مسلم وأحمد في المسند، فتح الباري ج6 ص232.

(5) سورة التحريم، الآية: 6.

«والله تعالى يدبر بهم ملكه، وهم يقومون بأوامره حق القيام، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم، وأن الله أسجدهم لآدم عليه السلام وقد فطروا على أن لا يعصوا الله أمراً ويفعلوا كل ما يؤمرون به من فوقهم، وهم منقطعون إلى العبادة»[1].

قال تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿26﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

فهم مخلوقات تؤمر بما تفعل وفي حدود ما علمها الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

فعملهم العبادة وتسبيح الله والقيام بما يأمرهم به الله، كما أنهم ويستغفرون للذين آمنوا ويخافون الله تقديساً وتعظيماً. قال تعالى في هذا الخصوص:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿7﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿8﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿49﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[6].

---

(1) أبو علي المودودي ـ مبادئ الإسلام ص72 ـ 73 ط 1954.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 26 و27.
(3) سورة البقرة، الآية: 34.
(4) سورة البقرة، الآية: 31 و32.
(5) سورة غافر، الآية: 7 ـ 9.
(6) سورة النحل، الآية: 49 و50.

وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[1].

ويدخل في شمول أعمال الملائكة أنهم رسل الله يبلغون الأنبياء رسالته. قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

وقد أنزل الله القرآن الكريم وبلغ رسالته إلى محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وقد سمي بالروح الأمين، وروح القدس، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[5].

كما يرسلون الملائكة تعزيزا وتثبيتاً وتأييداً لرسل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾[6].

ومن مهام الملائكة تبليغ الاطمئنان والتبشير بالجنة للمؤمنين بتوحيد الربوبية والألوهية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[7].

إلى جانب هذه المهام لهم مهام أخرى إذ يرسلهم الله مردفين لتطمئن

---

(1) سورة الرعد، الآية: 13.
(2) سورة فاطر، الآية: 1.
(3) سورة البقرة، الآية: 97.
(4) سورة الشعراء، الآية: 192 ـ 194.
(5) سورة النحل، الآية: 102.
(6) سورة البقرة، الآية: 87.
(7) سورة فصلت، الآية 30 و31.

قلوب المقاتلين المؤمنين. قالت تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

كما أن الملائكة تتوفى الأنفس بأمر الله، سواء كانت طيبة أو ظالمة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[5].

هذا وقد أخبرنا الله في كتابه أن من الملائكة من تقوم بإحصاء أعمال الإنسان، من حسنات وسيئات، ليعلم أنه ما يلفظ من قول إلاّ وعليه رقيب عتيد. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[6].

والحكمة في ذلك تحقيق صلاح الإنسان بتحقيق الخير والابتعاد عن الشر، لا سيما وأنه يعلم أن كل ما يقوم به مسجل عليه ومسؤول عنه يوم القيامة، وبهذا يرتدع عن اقتراف السيئات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[7].

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 9 و10.
(2) سورة النحل، الآية: 32.
(3) سورة النحل، الآية: 28.
(4) سورة الأنعام، الآية: 61.
(5) سورة السجدة، الآية: 11.
(6) سورة الإنفطار، الآية: 10 ـ 12.
(7) سورة ق، الآية: 16 ـ 18.

هذه هي حقيقة الملائكة عرضناها تبعاً لما جاء به القرآن الذي نؤمن به من حيث وجودهم ووصفهم بما لا يحتمل التأويل في الأخبار عنهم، وذلك في الحدود التي ذكرها القرآن، دون التخطي إلى كيفية خلقهم، وتشخصهم، أو رؤيتهم، باعتبارهم من عالم الغيب الذي يعجز الإنسان عن إدراكه، إنما يقر به عن طريق الخبر الصادق عن الله سبحانه وتعالى، فمن العقيدة الإسلامية إذاً أن نؤمن بوجودهم ووصفهم، ومن الكفر إنكارهم، كما أنه من الكفر أن يتخذ منهم أرباباً أو يعبدوا أو يستعان بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

فهم إذن خلق الله المخلصون، وكل منهم له مقام معلوم. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[2].

وبهذا نخلص إلى القول بأنه لا يسوغ لنا إلاَّ أن نؤمن بهم بما وصفهم الله ورسوله (وأن نمسك عما وراء ذلك فإن هذا من شؤون الغيب التي لا نعلم منها إلاَّ ما علمنا الله ورسوله)[3].

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(2) سورة الصافات، الآية: 164 ـ 166.

(3) ابن تيممية ـ العقيدة الواسطية، شرح محمد خليل هراس ص17.

الفصل الثالث

الإيمان بكتب الله

المراد بهذا الركن من الإيمان، هو الإيمان بالكتب المنزلة من الله بالحق على الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1].

هذه الكتب التي أنزلها الله على رسله بواسطة الملائكة البررة الذين هم سفرة بين الله وخلقه فيها هدى ونور، ويدخل في شمول الكتب السماوية القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام. ويعتبر القرآن الدليل الثابت والصادق بنزول الكتب على الرسل إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى. حيث أورد القرآن ما يوجب الإيمان بكل ما أنزله الله من كتب على رسله، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

فالإيمان المطلوب هو إيمان بالكتب المنزلة على وجه الإطلاق وهي الكتب

---

(1) سورة البقرة، الآية: 213.

(2) سورة البقرة، الآية: 136.

السابقة التي نزلت على سائر الرسل، سواء أخبرنا الله عن اسمائها أو لم يخبرنا، إذا المعلوم بما أخبرنا الله أن لكل نبي أرسله رسالة بلغها قومه. قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾(1).

فإيماننا إذن يقتضي التصديق بجميع كتب الأنبياء، التي أنزلها الله، ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن الأنبياء أعم من الرسل ذلك لأن من الأنبياء من هم أنبياء مرسلون، وأولهم آدم، وآخرهم محمد ﷺ، ومنهم أنبياء غير مرسلين. فالكتب السماوية المنزلة والتي شاء الله أن يخبرنا بها هي:

صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلت على موسى في الألواح، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والزبور الذي أنزل على داوود. والقرآن الذي هو مصدر هذا الإخبار هو آخر الكتب نزولاً فقد نزل على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين. وهو أي القرآن (هو المصدق لها والمهيمن عليها وما عداها يجب الإيمان به إجمالاً)(2).

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(3).

فالقرآن إذن فيما تضمنه من أخبار الرسل والكتب المنزلة عليهم هو مصدر إيماننا بهذه الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿48﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿49﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿50﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(4).

---

(1) سورة البقرة، الآية: 213.

(2) ابن تيمية ـ العقيدة الواسطية، شرح محمد خليل هراس ص18.

(3) سورة المائدة، الآية: 48.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 48 ـ 51.

ومن المسلم به إيماناً أن جميع الكتب السماوية التي انزلت إنما نزلت بالحق والنور والهدى لتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته وصفاته. فعن التوراة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾[1].

وقال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

هذه الكتب السماوية التي جاءت قبل القرآن إنما نزلت بأزمنة معينة وعلى أقوام معينين قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[3] لهذا فإن شرائع الرسل اختلفت في بعض الأحكام العلمية، والتفصيلات الجزئية، تبعاً لاختلاف الزمان واختلاف أحوال المجتمع، فقد اختلفت عقود المعاملات، ولكن الذي لا جدال فيه أن جميع الكتب السماوية متفقة حول توحيد الله سبحانه وتعالى من حيث الألوهية والربوبية، كما أنها متفقة حول المبادئ الأخلاقية السامية التي تصقل الإنسان، وتهيؤه تهيئة صالحة، ليعيش في المجتمع بكل سعادة واطمئنان، فهي كتب تضمنت ما فرضه الله من العقائد والعبادات وأصول الحلال والحرام.

على أن هذه الكتب الإلهية السابقة على القرآن قد تناولها التحريف والتبديل كما سبق أن أشرنا إليه، فعن التوراة فقد حرفه اليهود وادخلوا عليه التبديل والتحوير، بحيث لا يستطيع إنسان أن يعرف كلام الله وهذا ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[5].

---

(1) سورة المائدة: الآية: 44.

(2) سورة المائدة، الآية: 46.

(3) سورة المائدة: الآية: 48.

(4) سورة البقرة، الآية: 75.

(5) سورة النساء، الآية: 46.

وقد أشارت الدراسات النقدية حول عدم صحة التوراة، إذ توصل البروفسور مونتيه MONTET إلى تجريد التوراة من كل صفات الصحة فيما عدا كتاب (أرمياء)[1].

هذا ولم يكن الإنجيل أيضاً بعيداً عن التحريف، بل إن مجمع أساقفة (نيقية) قد ألغى كثيراً من أخباره بحيث أضحى الشك قائماً حول الباقي منه، ومع ذلك فقد أثبتت الدراسات النقدية أيضاً، بأن التحريف في مضامين هذه الكتب المقدسة المشار إليها ثابت من حيث مواضيعها الجوهرية فيما يتعلق بالتوحيد، والربوبية، والألوهية، بما أشار إليه القرآن صراحة، على حصول التحريف وإخفاء ما جاء به الكتاب المقدس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[2].

فمبدأ التحريف قائم، سواء بالتبديل أو التغيير، أو بإخفاء الحقيقة، أما التبديل في مفهوم التوحيد وموضوعه، فقد أشار الله إليه في القرآن صراحة بالنسبة لليهود والنصارى الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر، أو نسبوا إليه ولداً. فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾[3] وقال تعالى أيضاً فيما اقترفه النصارى من التحريف أيضاً بالنسبة لذات الله وما أشركوا به:

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾[4].

---

(1) مونتيه MONTET (تاريخ الكتاب المقدس) طبعة جنيف، أشار إليه مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية ط ـ 1981 ص86.

(2) سورة المائدة، الآية: 14 و15.

(3) سورة التوبة، الآية: 30.

(4) سورة المائدة، الآية: 72.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1].

وقد رد الله على هؤلاء المحرفين لمفهوم التوحيد والألوهية بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2].

وقال تعالى مصححاً عقيدة من يزعمون أن الله هو المسيح ابن مريم بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

والخلاصة التي نصل إليها عن الكتب التي نزلت قبل القرآن، إنها قد ضاعت أصولها، ولم يبق منها إلاً ما هو موضوع من الغير، أو ترجمتها المحرفة، فضلاً عن ماورد فيها، والتي هي بين أيدينا قد اختلطت فيها الحقيقة مع الخيال واستنباط الفقهاء وسير الأنبياء، وكلام الناس، بحيث لا تستطيع أن تميز بين كلام الله وكلام البشر، وقد أورد محمد فريد وجدي نقلاً عن الموسوعة الفرنسية: «إن التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام وإنها عمل أحبار لم يذكروا أسماؤهم، ألقوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل، بل ذهب بعض العلماء، إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليس بها كل الروايات الإسرائيلية، ولكنها تحتوي على إشارات ورموز وحكايات»[4].

فالتحريف والتبديل قائم في هذه الكتب، فالأناجيل الأربعة المتداولة بأيدي النصارى مختارة من نحو سبعين انجيلاً، وهي تتناول الكتابة عن سيرة

---

(1) سورة المائدة، الآية: 73.
(2) سورة الإخلاص، الآية: 1 ـ 4.
(3) سورة المائدة، الآية: 75.
(4) أشار إلى ذلك نديم الملاح ـ العقائد الإسلامية ص57.

عيسى عليه السلام، وأن العقائد الواردة فيها وهي من رأي (بولس) دون سائر الحواريين، كما أنه من الأدلة القاطعة على التحريف أيضاً ما ورد فيها من عقائد فاسدة، وتصورات باطلة عن الله سبحانه وتعالى وعن رسله عليهم السلام، بما يشوه ذاتهم أو يمس بسمعتهم وشرفهم[1].

فالكتب السماوية السابقة قد اعتراها التبديل والتحريف سواء بتبديل النصوص أو تأويلها وحملها على غير معناها، أو بإخفاء النص وكتمه أو بالزيادة والنقص فيه، أو ما أهمل عمداً أو دون عمد من أحكام، كل هذه الأمور تدخل في شمول التبديل والتحريف، فضلاً عما وصلت إليه الخلافات الدينية بحيث أضحى كل أهل كتاب يكفرون غيرهم، فتهاترت العقائد فيما بينها وضاعت الحقيقة الإلهية، واضطرب مفهوم الدين، وسادت الجاهلية، حتى أتى القرآن كتاب الله السماوي المنزل على محمد ﷺ.

❖ القرآن

جاء القرآن ليبين للناس الهدى، ويقضي على الخلافات الدينية السابقة، والوثنية والجاهلية ويدعو إلى دين الإسلام بكتاب الله المنزل عليه، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

فالقرآن جاء مصدقاً لما أنزله الله من الكتب السماوية السابقة وقد ربط بين هذه الديانة في حقائقها الأولى، وما وصلت إليه من تجزئه لأحكامها، أو طمسها، وصحّح ما طرأ عليها، من بدع وضلالات كما جاء شاهداً وآمراً إلى وجوب تطبيق أحكام الله في كل أمة، إذ لكل أمة شرعة ومنهاجاً، كل هذا في

---

(1) سيد سابق ـ العقائد الإسلامية ص168.

(2) سورة النحل، الآية: 63 و64.

سبيل خير الإنسانية وتصحيح سلوك المجتمعات، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [2] فالقرآن كتاب سماوي امتاز بميزة انفرد بها من دون الكتب السماوية الأخرى وقد مضى على نزوله أربعة عشر قرناً دون أن يتعرض لأي تحريف، أو تبديل.

وقد أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة، عن طريق الوحي، فكان الوحي يتنزل على الرسول محمد ﷺ، وكانت الآيات تثبت في ذاكرة الرسول وصحابته وتسجل فوراً بأيدي أمناء الوحي حيث كانوا يستخدمون في ذلك الزمن كل ما يصلح للكتابة كعظام الكتف أو قطع الجلد أو غير ذلك، ولما قبض رسول الله ﷺ كان محفوظاً في الصدور، مدوناً في الصحف، وكانت تجري المقارنة كلما دعت الحاجة بالنسبة للآيات بعضها مع بعض، خاصة إذا عرض اختلاف من نوع صوتي أو لهجي، كما أن الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قد اختار لجنة يرأسها زيد بن ثابت الذي كان أميناً للوحي في عهد الرسول ﷺ لكتابة القرآن وجمع آياته ممن يحفظ عن ظهر قلب بنفس النظام الذي تعلموه، وأرشدهم إليه رسول الله ﷺ، وإذا حدث اختلاف، فكان يرجع إلى القطع المكتوب فيها الآيات عند نزولها، وعلى الرغم من الاحتياطات الدقيقة في جمع القرآن فقد ذهب زيد وعمر رضي الله عنهما إلى باب مسجد المدينة، وهناك أشهدا بقية الصحابة لتوثيق الرواية المكتوبة بواسطة اللجنة نفسها، وقد أجازت هذه اللجنة اختلاف بعض اللهجات الشائعة بين العرب،

---

(1) سورة المائدة، الآية: 48.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

ومع ذلك فإن الخليفة عثمان رضي الله عنه لم يرتح لهذا الاختلاف في اللهجات فأمر بكتابة القرآن في رواية موحدة بلغة قريش، فاختار لجنة ثانية لهذه المهمة برئاسة زيد بن ثابت أيضاً لتثبت نص القرآن نهائياً في لغة واحدة خشية من أن يسبب تنوع اللهجات في إحداث أي خلاف أو شقاق، وانتهت اللجنة الثانية من عملها في عام 25 هجرية أما ترتيب الآيات والسور، فقد كان توقيفياً من جبريل للنبي ﷺ. ومنذ ذلك العصر حتى يومنا هذا والقرآن ينتقل من جيل إلى جيل بشكل ثابت، وصورة وحيدة فريدة لا اختلاف فيها مطلقاً، ومتعارف عليها، وبهذا نجد أن القرآن هو الكتاب المنزل الوحيد الذي تمتع بامتياز رائع في الدقة والتوثيق والطريقة التي جمع بها فهي بحد ذاتها طريقة فريدة، وحدث هائل في التوثيق، إذ للمرة الأولى قبل 14 قرناً تتجلى صفات الطريقة المنهجية في العمل العقلي التي هي اليوم وقف التفكير العلمي[1] ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن لم يثر أي شبهة حول صحته، كما لم يثر أي نقد حوله، سواء من حيث الشكل أو من حيث الموضوع. ولا شك أن مرد هذا إلى عهد الله الذي أخذه على نفسه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] هذا القرآن هو آخر كتاب نزل من عند الله وهو حجة على الناس كافة، قائمة على مدى الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا القرآن الذي حفظه الله وَعَنى المسلمون بحفظه يتميز عن كافة الكتب السماوية وتتجلى ميزاته فيما يلي:

1 ـ إنه كتاب حوى أخبار الأمم الماضية وسلوكها. وأثر هذا السلوك عليها فيكون ما حل بهذه الأمم، تبعاً للأباطيل والأوهام التي اتبعوها عبرة، للأجيال الحاضرة والمستقبلة.

2 ـ إنه كتاب حكى لنا قصص الأنبياء وجهادهم بين أممهم، والمعاناة التي

(1) مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية 102 وما بعدها.

(2) سورة الحجر، الآية: 9.

لاقوها، وصبرهم واستمرارهم في رسالتهم، وما كان بينهم وبين قومهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم، وأخذ علماء الملل المختلفة بما أفسدوه من عقائد، وما خلطوا به من أحكام، وما حرّفوا من الكتب السماوية بالتأويل أو التبديل لفظاً، وموضوعاً وزيادة ونقصاً.

3 ـ جاء هذا الكتاب بأخبار الغيب بما صدقته حوادث الكون، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[1]. وأكد الوعد الذي قطعه الله على نفسه بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[2].

4 ـ جاء في هذا الكتاب من آيات الأحكام بما شرع للناس كافة بما يتفق ومصلحتهم ويحقق سعادتهم وسعادة المجتمع، بحيث يقوم بها العدل وتحقيق الحرية وتنتظم بها الحياة فهي أحكام شرع الله تفوق جميع الشرائع الوضعية.

5 ـ جاء القرآن بحكم ومواعظ وآداب، يحقق سلوكها وتطبيقها المجتمع المثالي، الذي تهدف إليه الأمم.

6 ـ تضمن القرآن أحكام المعاملات المالية الاقتصادية بما يعكس نظاماً في التعامل قائماً على الصدق والأمانة، والوفاء بالعهود وتحقيق الكسب المشروع والابتعاد عن المزاحمة والاستغلال والاحتكار، وتحقيق التكافل والتضامن الاجتماعي.

7 ـ تضمن القرآن نظاماً للتوحيد والعبادات بما يصقل النفوس ويصلحها بحيث تضحي صالحة لإقامة التآخي والتآزر والمحبة بين الناس.

8 ـ تضمن الحديث عن الكون وما فيه من كائنات خلقها الله بما أحاط به علماً

---

(1) سورة الروم، الآية: 2 ـ 4.

(2) سورة النور، الآية: 55.

وقدرة، بحيث أشار إلى النظم الدقيقة التي يقوم عليها الكون، بما فيه من حياة، وجماد، هذا القرآن جاء إعجازاً للقوى البشرية جمعاء من أن تأتي بسورة من مثله، وقد تحقق هذا التحدي، أليس في هذا الكتاب الذي نزل على لسان أمي أعظم معجزة وأقطع دليل، على أنه ليس من كلام البشر؟ إنما إنه النور المنبعث عن فيض العلم الرباني والحكم الإلهي «إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة» فإنه كلام رب العالمين ينفذ إلى الأرواح، في عصر تجلى التذوق البياني في الفطرة العربية، ومع ذلك عجز البلغاء والشعراء والحكماء والخطباء عن أن يتحدوا الإعجاز فيه بوسائلهم في التذوق العلمي، فضلاً عن عجزهم أيضاً عن طريق التذوق الفطري، بل رجعوا بالخيبة، وعلى هذا فإن (إعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري)[1] كما أدركها علماء البلاغة والبيان بتذوقهم العلمي وقد تعددت فيه وجوه الإعجاز سواء من حيث اللفظ والإسلوب والصياغة، أو من حيث التشريع، أو من حيث الإخبار بالمغيبات ووقوعها كما أخبر، أو من حيث الإعجاز العلمي بما ورد فيه، إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز التي لا حصر لها.

قال تعالى مسجلاً عجز البشرية عن الإتيان بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

وهكذا تبين لنا الفرق والتميز بين القرآن والكتب السماوية الأخرى، ومع ذلك فإن المطلوب من المسلم طبقاً لعقيدته، أن يؤمن بالكتب السماوية المنزلة على جميع الأنبياء والرسل فالمطلوب الإيمان بالكتب السماوية القديمة، المنزلة من عند الله وهي صادقة بما جاء فيها الإصلاح البشر وهدايته تبعاً لزمان نزولها وقد جاء القرآن مصدقاً لها، وقد جاء بالحق ليتم نعمة الله على البشرية جمعاء،

---

(1) مالك بن نبي ـ المرجع السابق ص66.
(2) سورة الإسراء، الآية: 88.

وإنه كلام الله، يقتضي الإيمان به، وبكل ما جاء من عنده، وإطاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وهو الكلام الخالص لله الذي نزله الله على محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[1]..

(1) سورة البقرة، الآية: 285.

ثبت المراجع

القرآن الكريم:

أ

- ابن تيمية: الفرقان.
- ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ج15.
- ابن تيمية: مجموعة رسائل ابن تيمية.
- ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام.
- ابن حزم: المحلى.
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد.
- ابن قتيبة: المعارف.
- إبراهيم خليل أحمد: المستشرقون في العالم العربي الإسلامي.
- ابن الأثير: تاريخ الكامل.
- أحمد أمين: التكامل في الإسلام.
- أحمد زكي: مع الله في السماء.
- إسماعيل الدفتار: قبس من هدي الرسول.
- أحمد بن حسن البيهقي: الأسماء والصفات.

- أبو علي المودودي: **مبادئ الإسلام.**
- أبو حامد الغزالي: **تهافت الفلاسفة.**
- أبو حامد الغزالي: **المنقذ من الضلال.**

ت

- توماس الأكويني: **الموسوعة الإلهية.**

ج

- جلال القشيري وعبد الرزاق الصادق: **الموسوعة الفلسفية.**

د

- الدمرداش عبد الحميد (ترجمة): **الله يتجلى في عصر العلم.**

ز

- زكي نجيب وأحمد أمين: **قصة الفلسفة الحديثة.**

ر

- رؤوف شلبي: **المجتمع العربي قبل الإسلام.**
- رؤوف شلبي: **الأديان القديمة في الشرق.**
- الراغب الأصفهاني: **تفصيل النشأتين.**

س

- سيد سابق: **العقائد الإسلامية.**

ش

- الشريف الجرجاني: **ميثاق الأمم والشعوب.**

ع

- عبد السلام التونجي: **مصادر الالتزام في القانون المدني الليبي.**

- عباس محمود العقاد: **الموسوعة الإسلامية.**

غ

- غوستاف لوبون: **الآراء والمعتقدات.**

ل

- لورانس بروان: **الإسلام والإرساليات.**

م

- محمد خليل هراس: **العقيدة الواسطية.**
- محمد حب الله: **الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية.**
- محمد شلتوت: **من توجيهات الإسلام.**
- محمد شلتوت: **الإسلام عقيدة وشريعة.**
- مالك بن نبي: **الظاهرة القرآنية.**
- محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن.**
- محمد عبده: **رسالة التوحيد.**
- محمد كرد علي: **الإسلام والحضارة.**
- محمود صالح الفلكي (ترجمة): **العلم يدعو للإيمان.**

ن

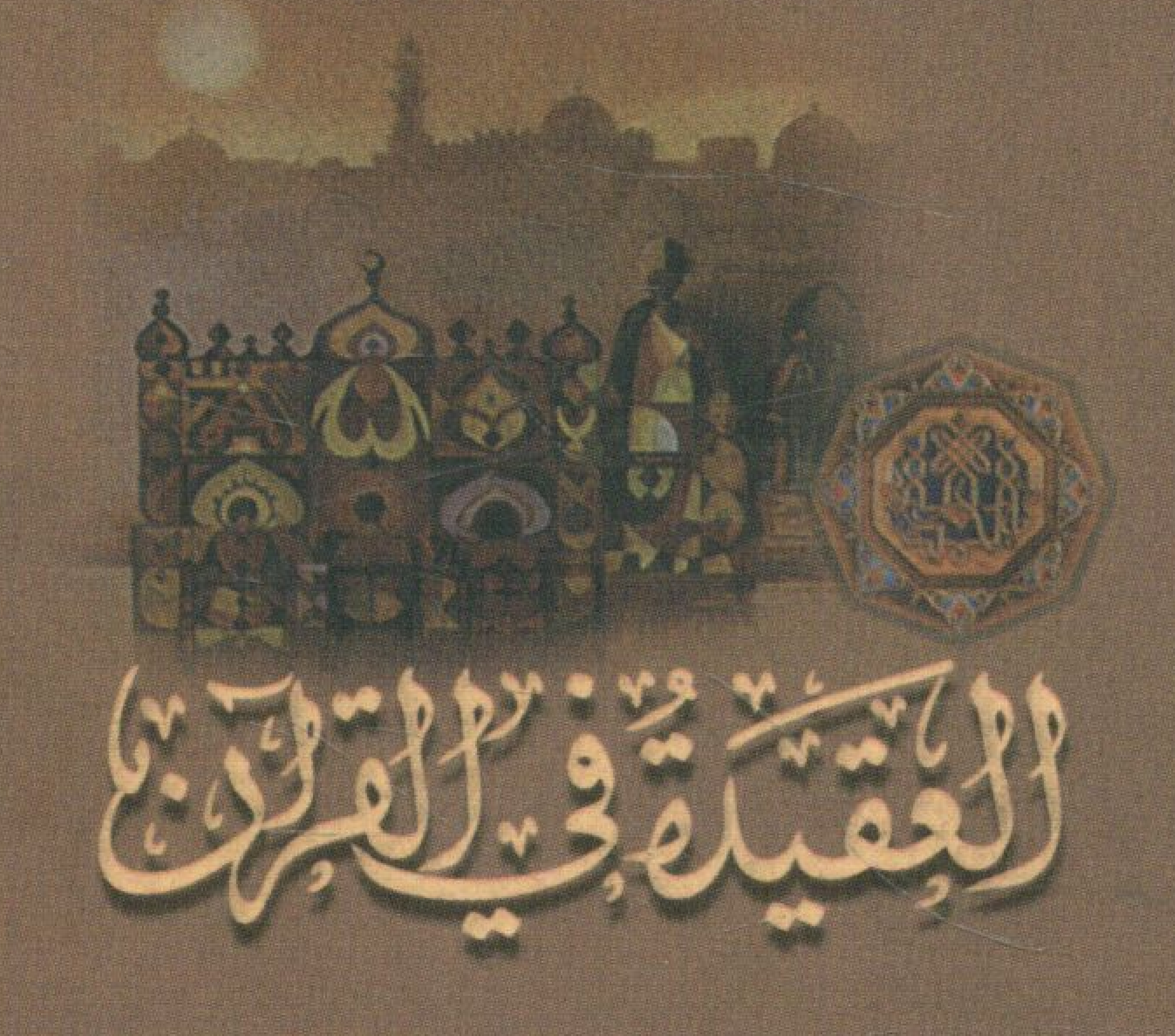
- نديم الملاح: **العقائد الإسلامية.**
- نديم الجسر: **قصة الإيمان.**

و

- وحيد الدين خان: **الإسلام يتحدى.**

الجزء الثاني سيتناول الإيمان بالرسل (النبوة والوحي)
وباليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره

الفهرس





ISBN 978-9959-28-186-9
9 789959 281869



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique